سلسلة شرح أحاديث سيد البشر

أولا: سلسلة شفاء السقم

بتوضيح وتهذيب جامع العلوم والحكم [١]



احفظ الله .. يحفظك !!





لفضيلة الشيخ

محمد الدبيسي

حفظه الله وعفا عنه

الطبعة الرابعة

١٤٣١ هـ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ.. وبعد،،

منذ عام ١٤٢٠ للهجرة النبوية الشريفة - ٢٠٠١ تقريباً للميلاد - كان فضيلة الشيخ محمد الدبيسى - حفظه الله تعالى - قد بدأ شرح وتوضيح أحاديث النبى ﷺ من "جامع العلوم والحكم" للحافظ العلامة ابن رجب الحنبلى - رحمه الله تعالى - ، حتى شرحها جميعاً من جوامع كلمه ﷺ.

وكان لفضيلة الشيخ تقسيم لهذه الجوامع وضع تحت كل قسم ما يجمع كلام رسول الله ﷺ فيه، حيث امتازت هذه الأحاديث بالكلام عن الإيمان وهو الأصل الذى يتفرع منه بقية الفروع، ثم أحاديث إصلاح النفس والقلب فيما بين العبد وربه، ثم ما لا يتم صلاح المرء إلا به؛ وهو الصلاح فيما بينه وبين المؤمنين، فترقى الأمة بذلك، ثم بين ما يصلح به سير المرء إلى الله تعالى حتى يحقق الاستقامة، وترتفع راية الإسلام وتعلو منارته.

وقد كان لهذه الأحاديث فى حينها أثرها فى الإخوة المؤمنين، ولكن لما طال الزمان بينها وبيننا زاد احتياجنا لتلك الجوامع، فبدأنا بحول الله تعالى فى محاولة طبع بعض دروس فضيلة الشيخ، وآثرنا أن تكون تلك المطبوعات من دروس جامع العلوم والحكم تتميماً للفائدة ونشراً لكلام نبينا ﷺ، دليلاً لإصلاح النفس والعمل والسير إلى الله تعالى، وتيمناً باتباع سنة النبي ﷺ وهديه الكريم، وكذلك علماً بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وقد اقترح فضيلة الشيخ أن يكون اسم هذه المجموعة "**شفاء السقم بتوضيح وتهذيب جامع العلوم والحكم**".

وضرورتنا إلى الله تعالى فى هذه الظروف الصعبة أن يحفظ المؤمنين وأسرهم وأولادهم حفظاً للإسلام وأهله جعلتنا نبدأ بطبع حديث "احفظ الله يحفظك"، واحتياجنا إلى ذلك جعلنا نسرع فى طبعه مؤجلين إصلاح الخطأ وسد الخلل لما يأتى من نصح الناصحين لله ولرسوله وللمؤمنين...

ندعو الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والناظر فيه إنه سميع قريب... والله من وراء القصد...،

مسجد الهدى المحمدى



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على سيدنا محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وآل بيته، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠-٧١]

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد.[١]



[١] -حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٣/٢٧) والذهبي في المهذب (٣/١١٤٢).

نعود إلى ما كنا بصدده من شرح أحاديث النبي ﷺ في إصلاح النفس، والقلب، والعمل، والسير إلى الله تعالى.

وقد انتهينا عند حديث معاذ بن جبل ﷺ قَالَ: (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ. قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِ، تَعْبُدُ الله وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ ثُمَّ تَلَا {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ} حَتَّى بَلَغَ {يَعْمَلُونَ}.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا.

فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قال: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)[1].

ففي هذا الحديث الشريف وما استتبع من تفصيل لكثير من الأمور التي ينبغي أن يراجعها أهل الإيمان، ومن ثم لا بد أن يذاكره من سمعه، ومن لم يسمعه لا بد أن يسمعه ويذاكره.

[1] - رواه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه (٣٩٧٣)، كلاهما يرويه من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/٢٥٩).

وقد فُصّل فيه كثير من المعاني في إصلاح النفس، والعبادة، والقلب، وتوحيد الرب -سبحانه وتعالى- وما إلى ذلك من المعاني المهمة التي بها تستقيم أحوال الناس، وأحوال الأمة، ويرتفع البلاء، وتنزل الرحمة، وتعم سكينة الله تعالى، ويكون ذلك طريق نصر المؤمنين المتقين.

والحديث الجديد، حديث هذه الأيام، وإن كنا قد أشرنا إليه في بعض الخطب، وإنما ينبغي أن نُفرد له دروسًا؛ حتى يكون من المؤمنين على ذُكر. إذ إن تذكرهم هذه المعاني من كلام النبي ﷺ، هو سبب سعادتهم في الأولى والآخرة. إذا أتبعوها بالعمل والدعوة إلى الله تعالى..

هو حديث ابن عباس رضي الله عنهما، **فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظْ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»**. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح[1].

وفي رواية غير الترمذي: «**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ الله بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظْ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِه الله لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ الله عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»[2].

---

[1] - رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

[2] - الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣) رقم (٢٨٠٤)، وقال ابن تيمية في التوسل والوسيلة (٥٢): معروف مشهور، وحسنه وابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٣٢٧/١) وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٨٨) : حسن وله شواهد، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٥٩/١): حسن جيد.

هذا الحديث ينبغي أن يحفظه كل أحد، وسنشير إن شاء الله تعالى إلى شيء من الفوائد التي تهم المؤمنين، المطالبين بالتحقق بسنة النبي ﷺ، خاصة في هذه الأيام التي زاد احتياجهم فيها إلى حفظ الله تعالى، وإلى تنزل رحمته، وإلى رفع البلاء والكرب النازل على المؤمنين في كل مكان؛ وكذلك لأن مسئوليتهم في ذلك أمام الله تعالى كبيرة، وكل تقصير في هذا الأمر يسبب نكستهم ونكسة غيرهم؛ فإنهم يدرءون عن أنفسهم وعن غيرهم بدعائهم وصلاتهم، وبحفظهم لله تعالى يحفظهم ويحفظ غيرهم، فإن قصروا فقد عرضوا أنفسهم وغيرهم لما ينزل بهم، وبتقصيرهم استحقوا ما نزل بهم، وما يمكن أن ينزل.

مسئوليتهم لا شك جسيمة كبيرة، والتفريط فيها تفريط في حقوق النفس، قبل أن تكون تفريطاً فى حقوق الأخوة، وفى نفس الوقت هى تفريط في حق الرب جل وعلا، وتفريط في حق النبي ﷺ وسنته المشرفة، والآن إلى وقفات مع هذا الحديث الشريف.

هذا الحديث من أعظم أحاديث الدين إذ إنه يتضمن أبواباً عظيمة من الإسلام كما قال ابن رجب رحمه الله تعالى حيث يقول: وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة، وقواعد كلية من أهم أمور الدين؛ حتى قال بعض العلماء: تدبرت فى هذا الحديث وفي معانيه فأدهشني، وكدت أطيش فوا أسفًا من الجهل بهذا الحديث، وقلة التفهم لمعناه؛ فانظر رحمك الله تعالى إذ أنه تدبر هذا الحديث فكاد عقله أن يذهب مما وجد فيه من المعاني الحسنة، والوصايا العظيمة، والقواعد الكلية من قواعد الدين المهمة، ثم يتأسف أشد التأسف على أن مضى عليه ذلك العمر الطويل، وهو يجهل هذه المعاني التي وجدها عند تدبرها تستحق هذا الاهتمام، وتستحق هذا الأسف الذي تأسفه على عدم علمه بها.

كيف يحفظ العبد ربه تبارك وتعالى؟

نبدأ في شرح الحديث، يقول ابن عباس ﷺ : كنت خلف النبي ﷺ وهذا من تواضعه صلوات الله وسلامه عليه، إذ كان ﷺ يركب حماره أو بغلته ويُردِف خلفه يعني: لم يكن يأنف، أو يتكبر ﷺ أن يركب حماراً أو أن يردف أحداً وراءه ولو كان صبياً صغيراً، وهذا من تواضعه لله تعالى الجمّ، ﷺ.

كنت خلف النبى ﷺ – وهى تحمل معنى الفخار. أن يكون خلف النبي ﷺ حقيقة، فهى تدل على الفخار الأعلى فى اتباعه ﷺ، ولئن فات المؤمنين اليوم أن يكونوا خلفه ﷺ حقيقة بالصلاة خلفه والجهاد معه فلم يفتهم الفخار باتباع سنته والتزام هديه واقتفاء أثره ﷺ..- وكانت عادته ﷺ إفادة المؤمنين، فلا يمر وقت يكون فيه أحد معه، إلا يوصيه ويعلمه ويرشده، فكان يستأنف هو من نفسه ﷺ وصية له، فعندما يرى ﷺ في أحد نجابة في حفظ الدين وعلومه وتعبده لله تعالى، ويراه محافظًا على علوم الشرع، محباً للآخرة، محباً لربه؛ يزيده ﷺ من نفسه، فلما رأى تلك النجابة من ابن عباس ﷺ ـ وكان قد دعا له ﷺ أن يفقهه الله تعالى في الدين، وأن يعلمه التأويل[1]؛ فكان حبر الأمة ـ قال له ﷺ بأسلوب الشفقة والرحمة ومحبة الخير له: **يا غلام إني أعلمك كلمات**، وهذا التعبير يوحي بأن يتشوق السامع، وأن يشد انتباهه إلى هذه الكلمات «**إني أعلمك كلمات**» وقالها ﷺ مُنكَّرة ـ ليست مُعَرَّفة ـ كأنه يقول: هي **كلمات قليلة فى مبناها**؛ حتى يحفظها عن النبي ﷺ «**إني أعلمك كلمات**» وفي رواية: «**ينفعك الله بهن**»، وكلمات منونة «**إني أعلمك كلماتٍ**» وذلك لخطر شأنها يعني: كأنه يقول: **إني أعلمك كلمات عظيمة مهمة؛ ألق**

---

[1] - أخرجه أحمد (١/٢٦٩)، رقم (٢٤٢٢)، والطبرانى (١١/٢١٣)، رقم (١١٥٣١)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٣١٦)، وابن سعد (٢/٣٦٥)، والحاكم (٣/٦١٥)، رقم (٦٢٨٠) وقال : صحيح الإسناد. والحديث رواه البخاري مختصرًا برقم (١٤٣) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ولفظه (عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءًا، قال: من وضع هذا؟ فأُخبِرَ، فقال: اللهم فقهه في الدين).

سمعك، وأحضر ذهنك، وعقلك لتفهم هذه الكلمات القيمة في دين الله تعالى؛ لأنه ﷺ لا يُعَلِّم أي كلمات، وإنما يعلم المهم الذي له شأن، وتكون الرفعة في حمله -كما يقول أهل العلم- وهذا ما ينبغي أن يستقبل به المرء كلمات النبي ﷺ، أي: على الاشتياق وتعظيم الشأن ورفع المرتبة، وهذه الكلمات التي يقولها ﷺ لابن عباس تقال لكل أحد من المؤمنين. وهذا الاستقبال لها ينبغى أن يكون استقبال المؤمنين كافة..

«**إني أعلمك كلمات**» لها خطر ولها شأن ولها قيمة؛ فاستمع إليها، وخذها باهتمام، واحفظها، ثم بعد أن تحفظها وتتدبر معناها عليك أن تسارع للعمل بها، فإن فيها خيرك، وفيها صلاحك، وفيها سعادتك في الأولى والآخرة؛ فإنه ﷺ ما يقول إلا ذلك الذى يقرب الناس من ربهم، ويبعدهم عن سخطه وعذابه، سبحانه وتعالى.

«**احفظ الله يحفظك**» بدأ بهذا المعنى المهم وهو: **حفظ الله تعالى** وهو إجابة هذا السؤال الذى يسأله كثير من المؤمنين اليوم حيث يقول قائلهم: الأحوال مضطربة، والدنيا قد امتلأت بالفتن والمصائب وأصحاب السوء، وهذه المظاهر الماجنة والصور الفاتنة وكل ما يرى المرء في دنياه سواء في طريقه، في مدرسته، في جامعته، في عمله، في ركوبه... يرى الأخلاق السيئة والصور القبيحة والعادات الرديئة، وكل ما يكون سببًا لغفلته وبعده عن الله تعالى، حتى إنه لا يستطيع أن يسير قليلاً إلى الله تعالى إلا ويرجع... يلازم الاستغفار والتوبة والعمل الصالح والقيام والذكر وقراءة القرآن، ثم يثقل عن ذلك فيقعد الأيام والليالي الطويلة لا يقوم ولا يصلي ولا يذكر، وتصيبه الغفلة، ويجمد قلبه ويقسو، ثم يحِنّ إلى الإيمان والعمل الصالح مرة أخرى؛ فتجده متألمًا حزينًا على هذه الحال، ثم يسأل ما الطريق؟ ما الحل؟

قال النبي ﷺ : «**احفظ الله يحفظك**»، ولما قال: «**احفظ الله يحفظك**» ومعنى هذا لا بد أن يتحقق من الله تعالى، يعني: يأتي أحدهم فيقول: كنت أصلي وأصوم وأقرأ القرآن وفجأة أحوالي

انقلبت كلها، يقال له: العيب ليس في الصلاة والصيام، العيب فيك ومنك أنت؛ لأنك لم تصل إلى هذه المرتبة التي حفظت الله تعالى فيها فحفظك -سبحانه وتعالى-؛ لأن وعد الله لا يتخلف وكلامه لا راد له -سبحانه وتعالى- فإن قال لك: سيحفظك -سبحانه وتعالى- لا بد أن يحفظك، ولذلك فإن بحث المرء عن السبب الذى أودى به لتلك الحال يجعله يفتش عن نفسه وعن عمله؛ فإن عمله لم يبلغ به إلى الحفظ الكافي، أى إن صلاته ليست تؤتى ثمرتها، ونفسه ممتلئة من المصائب والرذائل والمفاسد التي تمنع صعود العمل إلى الله تعالى، مما يجعل عبادته لا قيمة لها، إذن عليه أن يفتش عن السبب فى ذلك. والتفتيش بداية الوصول إلى الحل.

احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه

قال: (**احفظ الله**) وماذا يعني أن يحفظ ربه؟ يعني من حفظك له أن تحفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، أن تحفظ حقوق الله تعالى؛ فتؤديها، وأن تحفظ حدوده فلا تتعداها، وأن تحفظ أوامره فتلتزم بها، وأن تحفظ نواهيه فلا تقع فيها، هذه الأربعة، يقول: *وحفظ ذلك يعني: حفظ الحقوق والحدود والأوامر والنواهي هو في الوقوف عند أوامره بالامتثال*، يعنى تقف عند أوامره -سبحانه وتعالى- ممتثلا متأدبًا خاضعًا ﴿ **وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٥]، وعند نواهيه بالاجتناب نهاك عن كذا وكذا فلا تتقحم هذه الأمور، ولا تقع فيها، ولا تبادر بأن تعصيه -سبحانه وتعالى- وألا يراك حيث نهاك، و ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [النور : ٥١] وأن تجعل بينك وبين ما حرم الله تعالى عليك حواجز وسدوداً لا يسهل اقتحامها، وحدود الله تطلق على ما أَذن فيه -سبحانه وتعالى- فلا تتعداه، أذن لك في الواجب فلا تتعداه، أذن لك في المباح المستحب فلا تتعداه إلى ما

نهى عنه، هذا معنى الحد، ومعنى الحد كذلك يعني المحرمات؛ كقول ماعز رضى الله عنه: قد أتيت حدًّا، فأقمه علي، يعني وقع فيما حرمه المولى -سبحانه وتعالى-.

والحدود تطلق كذلك على هذه العقوبات المقررة على بعض مخالفات الدين كحد السرقة والزنا والقتل.

المهم في هذا المعنى الذي نحن فيه أن يقف عند حدوده فلا يتعدى الحد الذي أذن له فيه إلى ما نهاه عنه.

واعلم أن الحافظين لحدود الله تعالى مدحهم المولى -سبحانه وتعالى- في كتابه؛ فقال -عز وجل-: ﴿ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ﴾ [ق: ٣٢-٣٤]، وفسر الحفيظ هنا في هذه الآية الكريمة بالحافظ لأوامر الله، وبالحافظ لذنوبه؛ ليتوب منها، ونحن -ولا حول ولا قوة إلا بالله- لم نفكر في حفظ ذنوبنا لنتوب منها للكثرة الكاثرة التي وقعنا فيها بحيث لا نستطيع حصرها، كالنظر المحرم، والسماع المحرم، والخطرات والوساوس واللغو، وتضييع الوقت، والغفلة، والحسد والغل، ومشاكل القلب، مصائب كثيرة.... فأين التوبة الصحيحة؟! وأين حفظ الله سبحانه؟! وأين سلامة القلب؟!...، أما هؤلاء الأوابون الحافظون فحالهم مختلف قد حفظوا ذنوبهم؛ ليتوبوا منها؛ لأنهم فهموا معنى قول المولى -جل وعلا-: ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦] وقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٣] كله مسطور عنده -سبحانه وتعالى- حتى يواجه به عبده يوم القيامة يقول: فعلت كذا يوم كذا وكذا، ينظر المرء في صحيفته فيرى سيئاته ويرى حسناته، يرى كل ذلك كما ذكر المولى -جل وعلا-: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] ...

وأعظم ما يجب حفظه من أوامر المولى -سبحانه وتعالى- الصلاة، وقد أمر الله تعالى بالمحافظة عليها؛ فقال جل وعلا: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨]، ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج : ٣٤]، وقال النبي ﷺ : **«من حافظ عليها كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة»** [١]، وفي حديث آخر: **«ومن حافظ عليهن -أي الصلوات الخمس- كن له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة»** [٢]؛ فهذه من أعظم ما ينبغي أن يحافظ عليه المرء، أن يحافظ عليها يعني: أن يقيمها في أوقاتها، مع المحافظة على أركانها وواجباتها وسننها وآدابها لله رب العالمين. وأن يبادر إليها فى حينها، ويأسف ويحزن على فوت حق من حقوقها، ثم يخرج منها وقلبه متعلق بها ليعود إليها، قد تخفف من أثقاله وقَلَّ حرصه وتكالبه على الدنيا ومال إلى دار الخلود وتجافى عن دار الغرور... فهذا قرة عينه فى الصلاة له منها بعض ما كان للنبي ﷺ فيها.

وكذلك مما ينبغي أن يحافظ عليه المرء الطهارة؛ فإنها مفتاح الصلاة، وقد قال النبي ﷺ: **«لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»** [٣].

ومما يؤمر المرء بحفظه الأيمان يعني: الحلف، قال الله -عز وجل-: ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩]؛ فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيرًا، ويهمل كثير منهم ما يجب لها فلا يحفظه ولا يلتزمه.

---

[١] - رواه أبو داود (١٤٢٠)، والنسائي (٤٦١) وابن ماجه (١٤٠١) كلهم يرويه من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وقال ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/٢٨٨) : صحيح ثابت، وصححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (١/٤٤٧) .

[٢] - رواه أحمد في مسنده (٦٥٤٠) والدارمي في سننه (٢٧٢١) كلاهما يرويه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، والحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٢٦٤) وقال: إسناده جيد، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٩٧) وقال: رجال أحمد ثقات.

[٣] - رواه ابن ماجه (٢٧٧) وأحمد في مسنده (٢١٨٧٣) والدارمي في سننه (٦٥٦) كلهم يرويه من حديث ثوبان ﷺ، والحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/١٣٠) وقال: إسناده صحيح.

وكذلك مما ينبغي على المرء أن يحفظه ليكون سبب نجاته، وأن يكون سبب حفظ الله له حفظ الرأس والبطن، كما روي في الحديث -وإن كان في سنده مقال- من حديث ابن مسعود ﷺ يقول: «**الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وأن تحفظ البطن وما حوى**»[1]، وحفظ الرأس يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات، وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على المحرمات من الحسد والغل وطول الأمل في الدنيا، والبغي والنفاق وغير ذلك من الآفات التي يراها في نفسه كالعجب، ورؤية النفس، والاستطالة على الخلق، وآفات القلب كثيرة شديدة تزيد على آفات الجوارح...

قال الله -عز وجل-: ﴿**وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وهذا موضوع طويل، يشرح بالتفصيل فى أحاديث أخر. ولكن نشير هنا إلى رؤوس مسائله.

واعلم أن من حفِظ جوارحه من معصية الله تعالى؛ حفظها الله عليه، وكانت سبباً فى حفظ الله تعالى عليه إيمانه، ودينه، وطاعاته.

حفظ الطاعات

واعلم أنك لن تستطيع المحافظة على الطاعات، والاستقامة والسير إلى الله تعالى السير السليم الصحيح الثابت إلا بأن تحفظ الله تعالى؛ فإذا ما سرت في هذا الطريق وجدت حفظ الله

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) والترمذي (٢٤٥٨) كلاهما يرويه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٣/٣) : إسناده جيد، وحسنه النووي في المجموع (١٠٥/٥)، ولفظه (أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : استحيوا من الله حق الحياء .. قالوا : إنا نستحي يا نبي الله والحمد لله . قال : ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك، فقد استحيا من الله حق الحياء).

تعالى لك يراعيك ويسددك ويوفقك ويعينك ويقوي قلبك، ويذود عنك -سبحانه وتعالى- المتلفات والمهلكات في طريق السير إلى الله تعالى سواء كانت من نفسك، أو من الشيطان، أو من الهوى، أو من غير ذلك مما يقطع الطريق على المرء إلى الله تعالى.

يقول: *وحفظ الرأس يدخل فيه السمع والبصر والفؤاد، كما قال المولى:* ﴿ **إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ *[الإسراء: ٣٦].*

وأما حفظ البطن وما حوى فيتضمن حفظ القلب، أن يحفظ قلبه عن الإصرار على المحرمات؛ لذلك قال تعالى: ﴿ **وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ** ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقد جمع المولى -سبحانه وتعالى- ذلك كله في قوله: ﴿ **إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك يتضمن حفظُ البطن أن يحفظها مما يدخل فيها من المآكل والمشارب المحرمة والمكروهة؛ فإذا لم تحفظ بطنك عن المحرمات والمكروهات والشهوات المحرمات الفانيات الزائلات، وكذلك من الشبهات في مأكلها ومشربها، فإنه يوشك أن يتركك الله تعالى وألا يحفظك؛ لأن المرء -كما ذكرنا في الحديث-: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**» [1]، كما ذكر النبي ﷺ: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يرفع يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب ومأكله حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»؟! [2] كيف يستجاب له فضلاً عن أن يكون داخلاً في حفظ الله تعالى، كيف يحفظه ربه -سبحانه وتعالى- أصلاً وهو إذا رفع يديه إلى السماء أنى يستجاب له؟ لذلك كانت هذه المسألة من أعظم مسائل الدين التي يستطيع المرء بها السير إلى الله تعالى، كلما كان رزقه من حلال وكلما تحرى الحلال فيما يدخل بطنه

---

[1] - رواه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ.

[2] - رواه مسلم (١٠١٥) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. تتمة الحديث السابق.

كان ذلك أدعى إلى صفاء القلب والنفس، وأقرب إلى استجابة الدعاء، وأخف في السير إلى الله تعالى؛ فإن كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به [1]، فكيف يحفظه ربه -سبحانه وتعالى-؟

إذن هذا الأمر من الأمور المهمة التى ورد فيها حديث النبي ﷺ الذي أشرنا إليه، ثم بين بعد ذلك أن من أعظم ما يجب حفظه من الرأس والبطن: اللسان والفرْج، فيؤكد عليهما لأن بحفظهما دخول الجنة فعن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: **(من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)** [2] فدقق فى هذا المعنى: لأن التحقق به يعنى أننا انتهينا من مصائب النظر ومن مصائب الزنا، ومن مصائب المحرمات المتعلقة بالشهوات، وإن حفظ لسانه حفظ جوارحه كلها؛ فإن الجوارح كلها تكفر اللسان كل يوم تقول له: **إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا** [3]؛ ولهذا قلنا عند ذكرنا لحديث النبي ﷺ: « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» [4] كان ذلك دليل الإيمان بالله، ودليل الإيمان باليوم الآخر، وقلنا إن اللسان هو الذي يورد المرء المهالك، وكم من كلمة خرجت من امرىء كانت سبب دخوله النار -كما ذكر أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إن الرجل ليلقي بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفًا**»، «**أو يهوي بها في جهنم أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[5].

---

1 - رواه الترمذي (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ﷺ، وقال: حديث حسن.

2 - رواه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد ﷺ، ط١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ.

٣- رواه الترمذي (٢٤٠٧) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٥/٦) : أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ورواه الترمذي موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح.

4 - رواه البخاري (٦٠١٨) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، من أبي هريرة ﷺ، ط١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ.

5 - رواه البخاري (٦٤٧٨) من أبي هريرة ﷺ، ط١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ.

وكما ذكرنا في حفظ اللسان لو أن كل كلمة مكروهة، أو محرمة، أو كل كلمة تخرج من فم المرء ولسانه لا قيمة لها يلقي بها حجرًا في بيته لامتلأ حجارة بعد عدة أيام، من كثرة هذا الكلام الذي يتكلمه ولا يفيده لا في الأولى ولا في الآخرة، بل كم من كلام قد اعتذر عنه المرء فى حين أن النبي ﷺ يقول: «**إياكم وما يُعتَذَر منه**» [1] وهو حديث صحيح. وفي رواية: «إياكم وكل ما يعتذر منه» [2] يعني: إياك أن تقول كلمة تعتذر منها -واحفظ هذه الجملة من كلام النبي ﷺ تفيدك كثيرًا... **كم قد أفادت المرء كثيراً عندما يراقب نفسه وكلامه!...**

أمر الله -عز وجل- بحفظ الفروج، ومدح الحافظين لها؛ فقال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]، وقال جل وعلا: ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فيلاحظ فى الآية الأولى "ذلك أزكى لهم" فالحفظ طريق التزكية، بل هو أزكى، فما من شيء يتزكى به المرء من حفظ نفسه وشهواته، دليل خوفه، ومراقبته لله تعالى، وتقديم ما عنده، إلا يرتقى به وتزكو نفسه وتصفو، فى حين أن هذا طريق المغفرة والأجر العظيم.

والذى ينبغي أن تنزل هذه الأحاديث من كلام النبي ﷺ منه منزل الدواء على قلبك ولسانك وجوارحك، وأن تطيب القلوب والجوارح لهذه الكلمات من كلام النبوة؛ حتى تكون مرهمها وبلسمها الشافي لتكون هذه القلوب على الاستقامة والمحبة لما أمر به المولى وما أمر به النبي ﷺ.

[1] - أخرجه ابن عساكر (٢٨٢/١١)، والطبراني فى الأوسط (٣٥٨/٤، رقم ٤٤٢٧)، وقال الهيثمى (٢٢٩/١٠): فيه من لم أعرفهم. والقضاعي (٩٣/٢)، رقم (٩٥٢) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٠١/٤): إسناده حسن.

[2] - انظر السابق وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٤) : إسناده حسن.

وكذلك قد مدحهم -أي الحافظين فروجهم- في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١-٢] إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : ٥-٦]، وقال أبو إدريس الخولاني[1] -رحمه الله تعالى-: أول ما وصى الله به آدم -عليه السلام- عند إهباطه إلى الأرض حفظ فرجه، وقال: لا تضعه إلا في حلال. ولما كان الجزاء من الله تعالى من جنس العمل؛ قال النبي ﷺ مرتبًا الجزاء على العمل السابق: «**يحفظك**» يعنى: أن من حفظ حدود الله تعالى، ورأى حقوقه؛ حفظه الله -جل وعلا- فإن الجزاء من جنس العمل، فإذا حفظت له هذه الجوارح لا بد أن يحفظك، تفضلاً ليس شيئًا قصرًا عنه -سبحانه وتعالى- وإنما قد قطع ذلك على نفسه؛ فيوفي به -سبحانه وتعالى-؛ لذلك يقول: من حفظ حدود الله وراعى حقوقه؛ حفظه الله تعالى؛ فإن الجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وكما قال -جل وعلا-: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢]، وكما قال : ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ؛ فكان ذلك دليلاً على أنه إذا قال: «**احفظ الله**» فسألت ما الإجابة؟ ما النتيجة؟ ما العاقبة؟ ما الجزاء؟ يقول: «**يحفظك**» ولو لم يصله بقية كلام النبي ﷺ.

---

[1] - أبو إدريس الخولانى رحمه الله تعالى؛ عائذ الله بن عبد الله ويقال فيه عيذ الله بن إدريس، قاضى دمشق وعالمها وواعظها. ولد عام الفتح وحدث عن أبى ذر وأبى الدرداء وحذيفة وعقبة بن عامر الجهنى وغيرهم وله سماع من معاذ ابن جبل، وحدث عنه الأسود ومكحول وابن شهاب واليحصبى وابن أبى مسلم والقصير وغيرهم، وليس بالمكثر، وله جلالة عجيبة. سئل دُحَيْم عنه وعن جبير: أيهما أعلم؟ قال: أبو إدريس هو المقدم، ورفع أيضاً من شأن جبير بن نفير لإسناده وحديثه. قال مكحول: ما رأيت مثل أبى إدريس. وقال سعيد بن عبد العزيز: كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبى الدرداء رضى الله عنه. وقال النسائى وغير واحد: أبو إدريس ثقة. قالَ خليفة بن خياط وابن معين: مات أبو إدريس الخولانى سنة ثمانين. للاستزادة من أخباره: انظر الذهبى (١٤٥/٤) والبخارى (٨٣/٧) وابن أبى حاتم (٣٧/٧) وابن حجر (٧٤/٥).

حفظ الله لعبده

واعلم أن حفظ الله لعبده نوعان:

أحدهما: -وهو الذي يبحث عنه الخلق في هذه الأيام- أن يحفظ له مصالح دنياه، كأن يحفظه في بدنه وماله وأهله وولده. هذا الحفظ الأول.

والثاني ذكره الشيخ بعد ذلك يقول ﷺ: *النوع الثاني من النوعين وهو أشرف النوعين وهو أن يحفظ العبد في دينه وإيمانه؛ فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة، ثم يحفظ عليه دينه عند موته؛ فيموت على الإيمان.*

والحفظ الأول هو الذي يَهُمُّ الناس في دنياهم في هذه الأيام فإن المرء قد شغله عن دينه وعن عبادته وعن قيامه وعن ذكره أمور الدنيا، والسعي في مصالحها، وطلب العيش، وأخذ منه وقتًا وجهدًا؛ حتى إنه إذا أتى ليقوم لله تعالى، أو ليصوم، أو ليقرأ القرآن يكون قد أنهك جسمه وبدنه، وقد انتهى وقته ولم يبق إلا سويعات؛ ليستأنف مشواره مرة أخرى في السعي على الدنيا والمصالح والعيش فهذه المشكلة حلها أن يحفظ الله تعالى؛ وبالنظر فى أحوالنا تجدنا قد قلبنا الآية في هذه الأيام المرء يضيع وقته وجهده في أن يحفظ دنياه ومعيشته وماله وأكله وشربه وسعيه فيها؛ حتى إذا جاء ليله ليقوم لله تعالى، أو ليتلو كلامه، أو ليفرغ وقتًا لعبادته لا يجد، وإن وجد وقتاً كان متعبًا منهكًا لا يستطيع أن يواصل تلك العبادة.

فعلينا إذن أن نعيد الأمور إلى نصابها يقال له: **«احفظ الله»** يعني: ابدأ بحفظ أوامره ونواهيه وحدوده وحقوقه؛ فإنه حينئذ يحفظ عليك مصالح الدنيا التي تتعب نفسك فيها، وتضيع بسببها مصالح الآخرة، فابدأ بمصالح الآخرة فاحفظها؛ يحفظ عليك مصالح الدنيا والآخرة، فلا يستطيع أحد أن يقوم بذلك إلا أن يقويه ربه، وإلا أن يمده بالمدد، وإلا أن يمنحه

-سبحانه وتعالى- القوة والكفاية، وأن يبارك له -سبحانه وتعالى- في وقته وجهده وبدنه وصحته وماله، فيستطيع أن يقوم بذلك، ولا يستطيع أن يحفظ ذلك كله إلا أن يبدأ بمهمات الآخرة؛ فيحفظها فإن حفظها؛ حُفظت له الدنيا والآخرة... مع الثقة التامة فى الله تعالى وقدرته، وأنه يقول للشيء كن فيكون. لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى.

الراحة في العبادة

فمن يقول: (أريد أن أستريح فأنا متعب)، نقول له: راحتك في الطاعة، راحتك في العبادة، راحتك في قيام الليل، قال النبي ﷺ: «**أرحنا بها يا بلال**»[1] يعني: أرحنا بالصلاة، وكيف لا يستريح العبد بالصلاة والذكر؟! وقد ذكرنا أن الذكر يقوّي البدن، ويقوم مقام الخادم الذي يساعدك على القيام بمصالحك، والذي يبارك لك في وقتك، ويقوم لك ببقية أمور الدين التي لا تستطيع أن تقوم بها، كما قال الرجل للنبي ﷺ: «**إن فرائض أو شرائع الإسلام قد كثرت عليّ؛ فمرني بشيء أتشبث به. قال: لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**»[2]، فرطوبة لسانك بذكر الله تعالى هي التي تعينك على الإتيان ببقية أمور الدين وشرائعه، وفي نفس الوقت هي التي تعينك على القيام بمصالحك وأمور معاشك؛ لذلك لما طلبت فاطمة رضى الله عنها من النبي ﷺ خادمًا يساعدها على الطحن بالرحى، وحمل الماء والقيام بأعمال البيت؛ فوجّه النبي ﷺ فاطمة وعليًّا رضي الله عنه إلى ما هو خير من ذلك فعن عَلِيّ قَالَ: **شَكَتْ فَاطِمَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، فَأُتِيَ بِسَبْيٍ فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ فَلَمْ تَرَهُ فَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ عَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ، فَأَتَانَا**

---

[1] - أخرجه أحمد (٥/٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٧) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، وصححه الشيخ ناصر الدين في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

[2] - أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال : حديث حسن والحاكم في المستدرك (١٨٢٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا لِنَقُومَ فَقَالَ: « عَلَى مَكَانِكُمَا ». فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِى، فَقَالَ « أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»[1]، فلو فعلت ذلك عند نومها أصبحت أكثر نشاطًا بعد أن كانت قوتها قوة واحدة صارت قوتها هي وخادم معها، كأنها صارا اثنين في العمل لا واحدًا... مع بركة الذكر والإخلاص والطلب من الله تعالى وإفراده بالدعاء والركون إليه لا إلى غيره.

أنت تحتاج إلى ما يعينك ومن يعينك في عملك، ويقوم لك به، ويساعدك على إتمامه... إن أهم ما يعينك ذكرك لله تعالى؛ لذلك إذا وجدت نفسك متعبًا في يومك بعد عملك وسعيك على معاشك لا تأتي لتنام، وإنما عليك أن تقوم: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨] أن تقوم له، وأن تصلي له، وأن تذكره، وأن تدعوه، وأن تتضرع إليه، وأن تستغفره؛ تصحو يومك التالي وأنت أكثر نشاطًا، وقد ذهب تعبك ، وذهب كدك، وذهب ما كنت تجد من مشقة وعنت؛ لتصبح وقد ساعدك بما يقويك على عملك وعلى شغلك وعلى مصالحك. أما أن تكسل وأن تنام وأن تقول غدًا إن شاء الله، هذا الغد الذى لا يأتى، ثم من قال لك إن غدًا سيأتي عليك أصلاً؟...

هذه المسألة يستعد لها أهل الإيمان بعقولهم، وتفكيرهم، وأن يكون عونهم بالله تعالى، وأن يكون مددهم من الله تعالى، وأنهم يعلمون أنهم إن حفظوا الله تعالى؛ حفظ لهم مصالح دنياهم وآخرتهم، وإن فرطوا في حفظ الله تعالى نسيهم سبحانه وتعالى، ولن يأخذوا من الدنيا شيئًا، وكذلك خسروا الآخرة و ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١].

---

[1] - أخرجه البخاري (٣٥٠٢) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ومسلم (٧٠٩٠) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. كلاهما يرويه عن علي بن أبي طالب ﷺ.

كذلك لا بد أن يفترق أهل الإيمان عن غيرهم في مسائل اليقين والتوكل، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في سيرة أصحاب النبي ﷺ في غزوة أحد، هذه الغزوة وصل الحال فيها إلى أن النبي ﷺ كسرت رباعيته، وشج رأسه، ودخل المغفر في وجنته الشريفة ﷺ، حتى صلى قاعدًا لم يستطع أن يقوم ﷺ، وأصيب من المؤمنين المتقين الكثير، وكان بعضهم في جسمه بضع عشرة جراحة ضربة بالسيف تراها مثلاً ما بين ٣ سم ٥ سم ، ثم دعاهم النبي ﷺ في اليوم الثاني من معركة أحد ليتبعوا عدوهم، وقال: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال أمس» فلما نادى منادي النبي ﷺ : خرج جمعهم مرة أخرى لملاقاة الكفرة، وانظر إلى الجراحات التي فيهم، يقول: خرج من بني سلمة بضعة عشرة كلهم بهم جراحات، أقل واحد فيهم فيه ثلاث عشرة جراحة، وسبع عشرة جراحة عدة جراحات كما ذكرنا ولم يكن هناك لا مضادات حيوية ولا تخييط ولا هذه الأمور، وإنما هذه جراحات طويلة تنزف، وليست جراحات سهلة يعني: ٣ سم ٥ سم، وإنما ضربات السيف لم يرها الناس اليوم، وخرجوا كلهم كما أمرهم النبي ﷺ من الدي أعطاهم هذا المدد، وأمدهم بتلك القوة؟ لو أن واحداً منا فيه جرح ٣ سم وأصابته الحمى هل سيقدر على القيام، يقال: لماذا لم تأت الدرس؟ يقول لك: أنا أصبت بالحمى اليوم، وكنت مريضًا، وعندي رعشة خفيفة، ورشح، كلام لا يمكن قيله أبدًا من أهل الإيمان.

وقد خرجوا للجهاد وملاقاة العدو مرة أخرى، كما قال المولى: ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٧٣-١٧٥].

نعود إلى حديثنا مرة أخرى، ذكرنا أن حفظ الله تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله -عز وجل-: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد : ١١]. قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه، وخرّج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هذه الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي**»[1]، هذا حفظ الله تعالى لعبده في دنياه ومصالحه، وهل إذا حفظ أمر الله يضيع ربنا عليه مصالح الدنيا؟! هذا من عدم اليقين الذي نراه هذه الأيام، يقول له: اقرأ وصل أو احفظ القرآن أو قم الليل، أو احضر الدرس، أو اعمل كذا أو كذا. يقول لك: عندي كذا ، أو سأتأخر، وكذا وكذا، وعندي في الصباح كذا، وهذا من عدم اليقين؛ فإنك لو فعلت ذلك، وحفظت أمر الله تعالى؛ حفظ لك هذه الأمور التي تخشى عليها؛ لأنها بيده -سبحانه وتعالى-...

إذن اليقين الذي ينبغي أن يبدأ المرء ويجاهد نفسه عليه، أن يتعلم اليقين والتوكل على الله تعالى، والثقة وحسن الظن بالله تعالى.

من حفظ الله في صِغَره رُوعِي في كِبَره

يقول: *ونتيجة ذلك أن من حفظ الله تعالى في صباه وقوته؛ حفظه الله تعالى في حال كبره وضعف قوته، ومتّعه بسمعه وبصره وقوته وعقله. كان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو*

[1] - رواه أبو داود (٥٠٧٦) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ،والنسائي في الكبرى (١٠٤٠١) وابن حبان في صحيحه (٩٦١) والحاكم في المستدرك (١٩٠٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، كلهم يرويه من حديث ابن عمر ﷺ.

ممتع بقوته وعقله، فوثب يومًا وثبة شديدة؛ فعوتب في ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر؛ فحفظها الله تعالى علينا في الكبر، وعكس هذا أن بعض السلف رأى شيخًا في كبره يسأل الناس يتكفف؛ فقال: إن هذا ضيَّع الله تعالى في صغره؛ فضيعه الله في كبره.

ومما يحفظ الله تعالى به الولد والأهل: صلاحُ الأب، فقد يحفظ الله تعالى العبدَ بصلاحه بعد موته في ذريته، يعني: أن يكون صالحًا فيحفظ ذريته من بعده؛ بسبب هذا الصلاح الذى كان عليه، كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾ [الكهف : ٨٢] فإنه -سبحانه وتعالى- حفظ هذين الولدين بسبب صلاح أبيهما.

قال سعيد بن المسيب ﷺ لابنه: (لأزيدن في صلاتي من أجلك؛ رجاء أن أُحفَظ فيك) يزيد صلاته وعبادته من أجل أن يحفظ الله أولاده، بعض الناس اليوم يقول لك: العيال وأحوالهم، والعيال فسدت، والعيال خابت. قل له: أنت السبب، أو نعكس الكلام فنقول: قبل أن تقول الأولاد فسدت، والأولاد لا تصلي، والأولاد كارهة للمساجد، والأولاد لا تذاكر، وتلعب وبدأت في الأمور السيئة التي يقولون عليها... قبل أن تقول ذلك كله اعلم أن حفظ أولادك من صلاحك أنت ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا** ﴾ [الكهف : ٨٢]؛ فزد في صلاتك وعبادتك؛ رجاء أن يحفظك الله تعالى في ذريتك.

وقال عمر بن عبد العزيز[1] رضى الله تعالى عنه: (ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله تعالى في عقبه وفي عقب عقبه).

---

[1] - عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه؛ ابن مروان الأموى بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد السيد الربانى شيخ الإسلام والمسلمين، أمير المؤمنين حقاً، أبو حفص القرشى الأموى المدنى ثم المصرى الخليفة الزاهد الرشيد. أَمَّ بأنس بن مالك فقال أنس: ما رأيت أحداً أشبه

وقال ابن المنكدر[1] -رحمه الله تعالى-: (إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر) فالرجل الصالح يحفظ ربنا سبحانه وتعالى أولاده، وأولاد أولاده حتى الدويرات الدُّور يعني: المساكن من حوله، الله تعالى يحفظها بصلاحه، فيتنزل عليها الحفظ بصلاح هذا الصالح الذي فيهم، هذه الأولى.

إذا اشتغل العبد بالطاعة فإن الله تعالى يحفظه

والثانية: وهى أنه متى كان العبد -وهي المسألة المهمة- مشتغلاً بالطاعة فإن الله تعالى يحفظه في هذه الحالة، يعني: حال صلاتك، حال قيامك، حال ذكرك، حال قراءتك للقرآن، حال أمرك بالمعروف والنهي عن المنكر، حال سعيك لطلب العلم، حال قيامك بأوامر الشرع، حال قيامك بالسعي في مصالح المسلمين ببرك لوالديك وصلتك لرحمك وبالجهاد وغيره من أمور الشرع التي قد نويت فيها النوايا الصالحة؛ فإن الله تعالى حال عملك هذا يحفظك؛ لذلك يقول: ومتى كان العبد مشتغلاً بطاعة الله تعالى؛ فإن الله يحفظه في تلك الحال، فهذا داخل في حفظ الله تعالى؛ لأنه يقوم بالعبادة، والنبي ﷺ يقول: «**احفظ الله يحفظك**» ؛ فهو محفوظ حال طاعته وعبادته، فلا يظن السوء ولا يخافه؛ فإن ذلك -كما أشرنا- من ضعف اليقين.

صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى... وشهرته تغني عن التعريف به... ولولا المقام لذكر طرف من أخباره رضى الله عنه لا للتعريف به وإنما للتبرك.... وقد ألف قوم فى سيرته المباركة كابن عبد الحكم وابن الجوزى وأبو بكر الآجرى. للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى (٤/٤٠٠) وابن حجر (٧/٤١٨) والمزى (٢١/٤٣٢) وابن عساكر فى تاريخه (٢/١١٥).

[1] - محمد بن المنكدر رضى الله عنه؛ ابن عبدالله بن الهدير بن عبد العزى بن عامر بن الحارث بن حارثة بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لوى، الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام أبو عبد الله القرشى التيمى المدنى، قال سفيان: كان من معادن الصدق ويجتمع إليه الصالحون، و لم يُدْرك أحداً أجدر أن يقبل الناس منه إذا قال قال رسول الله ﷺ منه. وقال البُسْتِى: كان من سادات القراء لا يتمالك البكاء إذا قرأ حديث النبى ﷺ. وقال مالك: كان ابن المنكدر سيد القراء... للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى (٤/٥٤٠).

يقول: روى الإمام أحمد في مسنده، عن حميد بن هلال قال: كان رجل من الطفاوة طريقه علينا، فأتى على الحي فحدثهم، قال (قدمت المدينة في عير لنا، فبعنا بيعتنا، ثم قلت: **لأنطلقن إلى هذا الرجل فلآتين مَن بعدي بخبره، قال: فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو يريني بيتًا، قال: إن امرأة كانت فيه فخرجت في سرية من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عنزًا لها وصيصيتها كانت تنسج بها، قال: ففقدت عنزًا من غنمها وصيصيتها، فقالت: يا رب، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإني أنشدك عنزي وصيصيتي، قال فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها لربها تبارك وتعالى، قال رسول الله ﷺ فأصبحتْ عنزها ومثلها، وصيصيتها ومثلها، وهاتيك فائتها فاسألها إن شئت، قال: قلت بل أصدقك)**[1].

وذلك كلام الله تعالى الذي ذكره، والكلام وارد في القرآن، وقصة مريم عليها السلام قصة قريبة، يقول تعالى فيها: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٧] لا أحد يحضر لها الأكل ولا شيئاً من حاجياتها البتة، يدخل عليها سيدنا زكريا عليه السلام يجد الأكل، من الذي يأتي لها بهذا الأكل قالت هو من عند الله.

وكذلك من حفظ الله تعالى؛ حفظه الله -عز وجل- من كل أذى.

قال بعض السلف: من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيّع تقواه فقد ضيّع نفسه والله الغني عنه، ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بطبعها حافظة له من الأذى! على العكس، كما جرى لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، سفينة مولى النبي ﷺ أطلق عليه هذا الاسم؛ لأنهم كانوا في سفرهم يحمّلونه كل أثقالهم فسموه سفينة وكان مولى للنبي ﷺ؛ إذ

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده وتفرد به (٦٧/٥) حديث (٢٠٦٨٣) أورده الهيثمي في المجمع (٢٧٧/٥) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

كسر به المركب الذي يركبه، وخرج إلى الجزيرة، فرأى الأسد فقال له سفينة: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ يقول: فجعل يمشي معه حتى دلّه على الطريق، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه، ثم رجع، وهذا الحديث حديث حسن[1]، وسنرى مثال ذلك كما سنذكر -إن شاء الله تعالى- في بقية حديث "احفظ الله يحفظك".

وعكس هذا أن من ضيّع الله تعالى ضيّعه الله -جل وعلا- فضاع بين خلقه؛ حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله، فبعد أن كان ينتظر من أهله أن ينفعوه إذا بهم يضرونه، فهم سبب ضرره، كما قال بعض السلف: إني لأعصي الله تعالى فأرى ذلك في خُلُق زوجتي ودابتي، أو في خُلُق خادمي ودابتي، جزاءً وفاقًا من الله تبارك وتعالى على هذا الذي يعصي أوامره، ويخالف شرعه، ويخالف سنة نبيه ﷺ أن يؤذَى من المكان الذي ينتظر منه عدم الإيذاء، أو ينتظر منه النفع، وينتظر منه المصلحة.

[1] - رواه البزار في مسنده (٥/٢٦٥) حديث (٣٨٣٨) عن محمد بن المنكدر عن سفينة ﷺ.

حفظ الله تعالى للعبد من الشبهات المضلة والشهوات المهلكة

النوع الثاني من الحفظ: الذي يحفظ الله -تبارك وتعالى- به عبده الذي حفظ ربه، وهو أشرف نوعي الحفظ الذي يحفظ به المولى -سبحانه وتعالى- عبده هو أن يحفظه في دينه، وإيمانه؛ فيحفظه -سبحانه وتعالى- في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته؛ فيتوفاه على الإيمان، وهو المهم الذي ينبغي أن يشغل المؤمنين، كيف يحافظ المرء على دينه وإيمانه، وكيف يكون ذلك سببًا في أن يتوفاه الله تعالى على الإيمان، وذلك بحفظه -سبحانه وتعالى- من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة في هذه الحياة الدنيا... وتثبيته على دينه حتى يلقاه.

قال: أن يحفظ الله تعالى -كما أشرنا- فإن الله تعالى قد تكفل له حينئذ بأن يحفظه هذا الحفظ، وأن يتوفاه -سبحانه وتعالى- على الإيمان، والمرء مفتقر لهذا المعنى أشد الافتقار؛ فإن المرء بنفسه -كما ذكرنا- فقير لا يتمكن من أن يفعل لنفسه شيئًا، لو كان يتمكن أن يفعل لنفسه شيئًا لفعل، لِمَ لم يحفظ نفسه؟ ولِمَ لم يكن أفضل العالمين عبادة وتقًى؟ ولِمَ لم يكن أولاهم وأقربهم إلى الله تعالى؟ لأن قلبه بيد غيره، وأن قلبه هذا لا يحفظه عليه إلا مولاه -سبحانه وتعالى-، ومولاه -جل وعلا- لا يحفظ له ذلك إلا أن يبدأ هو بحفظ الله تعالى.

وعلى هذا يكون المعنى الذي ينبغي أن يتفكر فيه المرء أنه كلما قل حفظه لربه؛ كان جزاؤه من جنس عمله، يعني: عندما يتساءل لماذا هو في هذه الحالة السيئة النكدة، غير مستقيم على أمر الله تعالى، ولا سائر في سيره السير الصحيح إلى الله تعالى، بل هو متردد، وضعيف ويومًا يصلي، ويومًا يعبد، ويومًا يقصر، ويومًا يتلو، ويومين وثلاثة في الغفلة والبعد وهكذا؟

قال: على قدر حفظه لله -سبحانه وتعالى- على قدر ما يحفظه الله تعالى، انظر إلى حفظك أنت لربك؛ لترى قيمة هذا الحفظ من الله تعالى لك، أنت مقصر في هذا الحفظ فبمقدار التقصير في هذا الحفظ بمقدار ما يقل من حفظ الله لك.

فلنحرص على فهم هذا المعنى؛ حتى يحسن المرء من أحواله، وأن يحزن كذلك على تفريطه في أوامر الله تعالى، وبالتالى تفريطه فى حفظ الله تعالى؛ فيسارع ليتدارك هذا النقص، وليرفع هذا الخلل؛ حتى يعود حفظ الله له تامًّا كاملاً...

فأشرف النوعين أن يحفظ المولى -سبحانه وتعالى- عبده في دينه وإيمانه، فيحفظه -سبحانه وتعالى- في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، وهذا أهم الأمور أن يخرج المرء من دنياه على كلمة الإيمان: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1] من خُتِم له بالإيمان؛ خُتم له بالسعادة، وهذه المسألة من أصعب المسائل لأن الشيطان أشد ما يكون على المرء حال الموت، ويقول الشيطان لشياطين مثله: دونكم فإن لم تلحقوه؛ لن تلحقوه بعدها، يعني: دونكم هو يعني: أن يضلوه، وأن يموت على المعصية، أو على الإصرار على الذنب، أو على البدعة، أو على الاعتراض على قضاء الله تعالى، أو على غير ذلك من الأمور التي يُختم له فيها بالشقاء، ويختم له فيها بالمعصية؛ فيكون حينئذ الشيطان أشد على العبد في هذه الحالة؛ لأنه إن فاته -فات منه العبد في هذه الحالة- فاته أن يضله، وأن يهلكه؛ لذلك هذه المسألة من أعظم مسائل الدين أن يلجأ المرء إلى ربه ليحفظه؛ فيكون ذلك سببًا في أن يحفظه مولاه -سبحانه وتعالى- عند موته.

[1] - رواه أبو داود (٣١١٨) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والطبراني في-الكبير (٢٢١) والحاكم في المستدرك (١٢٩٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

والمرء -كما أشرنا- في هذه المسألة المهمة التي لا يأخذ حذره لها وهى عدم ضمان عمره وحياته، فإذا كان كذلك لا بد أن يكون حافظًا لله تعالى في كل أحواله؛ حتى إذا جاءه الموت حفظه ربه -سبحانه وتعالى- في هذه الحالة، وتوفاه على الإيمان -سبحانه وتعالى- .

واسمع لهذا الأثر من كلام السلف قال بعض السلف: إذا حضر الرجلَ الموتُ يقال للملك -يعني: إذا جاءه الموت- يقال للملك: شم رأسه. قال: أجد في رأسه القرآن. قال: شم قلبه. قال: أجد في قلبه الصيام. قال: شم قدميه. قال: أجد في قدميه القيام. قال: حفظ الله تعالى؛ فحفظه الله تعالى.

الافتقار إلى الله لبّ العبودية

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان يدعو بذلك، ويكل أمر حفظه إلى الله تعالى؛ يقول البراء بن عازب، عن النبي ﷺ أنه أمره أن يقول عند منامه: «**إن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» [1] فذلك دعاء النبي ﷺ والذي يظهر الافتقار إلى الله تعالى، والضرورة، والمسكنة إليه؛ فيأتي المرء ليقول: أنا أصلي، وأنا أصوم، وأنا أقوم، وأنا أفعل وأتصدق وكذا وكذا، وأحوالي متردية، وليست أحوالاً حسنة، وليست في أحوالي القرب والمحبة والإقبال على الله، فيقال له: أنت لم تصل ولم تصم على الحقيقة وإلا كان لها أثرها... هذه واحدة... والثانية: أن رؤيتك لصلاتك وعبادتك محبط لها فتكون غير مجدية لا قيمة لها... ثم كيف تدل بها على الله تعالى وتمن بما ليس منك وتريد أن يرفع الله عنك؟!... أنت محتاج إلى الافتقار إلى الله تعالى في حفظ نفسك، أنت لا تحفظ نفسك بنفسك، وإنما إذا لم يحفظك ربك ويوفقك -سبحانه وتعالى- إلى معاني الحفظ فأنت فقير مخذول، هذا خذلان الله تعالى؛

[1] - رواه البخاري (٦٣٢٠) ط١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ومسلم (٢٧١٤) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ.

لذلك كان هذا المعنى، وهو كيف يكون المرء ملتجئًا إلى الله تعالى في كل أحواله، مفتقرًا يظهر إلى ربه -سبحانه وتعالى- الافتقار إلى أنه إذا لم يمسك قلبه، ويحفظه؛ فإنه سيضل ويزيغ، فالمرء إذن فى هذا المعنى الجديد بين أمرين:

الأول: بين الدعاء والتضرع إلى الله تعالى أن يحفظه كما حفظ عباده الصالحين.

والثاني: أن يظهر لربه الافتقار إلى ذلك، وأنه فقير ولا يملك لنفسه شيئًا، ولا يستطيع أن يحفظ نفسه، ولا أن يمسك قلبه.

وفي حديث عمر رضى الله عنه أن النبي ﷺ: علّمه أن يقول: (**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تطع فيّ عدوًّا حاسدًا**)[1]، وهذا الحديث له شاهد من حديث ابن مسعود يرتقي إلى الحسن.

وكذلك في حال السفر كان النبي ﷺ يودع من أراد سفرًا بقوله: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»، ثم يقول -تعليقًا على هذا المعنى-: «**فإن الله تعالى إذا استُودع شيئًا؛ حفظه -سبحانه وتعالى-**» [2] يعني: إذا استودعنا المولى، وجعلنا وديعتنا عنده تعالى؛ حفظ ذلك كله -سبحانه وتعالى- من الذي يحفظك في غيبتك في أهلك ومالك وولدك؟ إذا كنت أنت على مالك وأهلك وولدك ولا تستطيع أن تحفظ من ذلك شيئًا، وولدك يمكن أن يكون كذا وكذا، وأهلك تفعل كذا وكذا، وما نسمع عنه، فما بالك لو كنت غائبًا؛ فإنك أشد حاجة وأعظم ضرورة وافتقارًا إلى حفظ الله، سبحانه وتعالى.

---

[1] - رواه ابن حبان في صحيحه (٩٣٤) والحاكم في المستدرك (١٩٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

[2] - رواه أبو داود (٢٦٠٢) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والترمذي (٣٤٤٣) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال: حديث حسن صحيح، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١٢٤/٥): أخرجه النسائي في اليوم والليلة، ورواه أبو داود مختصرًا، وإسناده جيد.

الله لطيف بعباده

وفي الجملة فالله -عز وجل- يحفظ على المؤمن - ليس كل مؤمن كما ذكر - فقط الحافظ لحدود دينه -سبحانه وتعالى- ، يحفظ عليه دينه ويحول بينه وبين ما يفسد عليه هذا الدين بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعضها، وقد يكون كارهًا للبعض الآخر، وهذه مسألة جديدة بينها الشيخ.

فبعد أن ذكرنا أن من حفظ الله تعالى؛ حفظه ربه -سبحانه وتعالى- ظهر لنا معنى جديد، وأنه قد تظهر في أعمال المولى -سبحانه وتعالى- المتعلقة بالعبد بعض أنواع الحفظ التى لا يستشعرها العبد، بل قد يكون متسخطًا عليها، وكارهًا لها وهي عين الحفظ من الله تعالى له، وهو لا يشعر.

وهذه التي تبين للمرء كيف يكون متعلقًا بالله تعالى، راضيًا بمواقع القدر التي يجريها المولى -سبحانه وتعالى- على عباده، يقول: وفي الجملة فالله -عز وجل- يحفظ على المؤمن الحافظ لحدوده يحفظ له دينه، ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبد ببعض هذه الأنواع، بل قد يكون كارهًا لها، كما قال سبحانه وتعالى في حق يوسف -عليه السلام-: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] عليه وعلى نبينا وعلى الأنبياء السلام.

والناظر في قصة يوسف -عليه السلام- يرى هذه المعاني من حفظ الله -تبارك وتعالى- لعبده من مواقع الفتن، وأنواع المضلات والشهوات التي حاقت به، وحفظه الله تعالى؛ لأنه من عباده المخلَصين، أو المخلِصين -سبحانه وتعالى- فلما حفظ الله تعالى تداركه، وصرف -سبحانه وتعالى- عنه السوء والفحشاء؛ لذلك لما قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ

وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٤] قال ابن عباس ﷺ : يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار، هذا معنى من معاني الآية: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٤] يعني: أن الله -جل وعلا- يحول بين المؤمن وبين المعصية، ولعل البعض قد لاحظ هذا المعنى أنه عندما يكون مجتهدًا مع الله تعالى في العبادة والذكر والإقبال على الله تعالى والتعلق بالله تعالى والافتقار إليه -سبحانه وتعالى- ثم يجد نفسه قد همت بشيء من المعاصي، أو شيء من الخروج عن أمر الله تعالى إذا بالله تعالى يمنعه، إذا بمصيبة تقع عليه لينتهي عن شيء كان سيوقعه في غضب الله تعالى؛ لذلك يقول: قال ابن مسعود ﷺ يبين هذا المعنى: (**إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة؛ حتى ييسر له؛ فينظر الله تعالى إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إني يسرته له أدخلته النار؛ فيصرفه الله تعالى عنه فيظل المرء يتطير متشائمًا حزينًا يعني يقول: سبقني فلان دهاني فلان وما هو إلا فضل الله، عز وجل**) [1].

فيتعلم المرء -بعد الرضا بقضاء الله- أن يكون فاهمًا لهذا المعنى، وهو أن الله تعالى ييسر له أمرًا من الأوامر ثم بعد ذلك إذا به يصرفه عن هذا الأمر، يقول لك: هل تصدق كنت سأعمل كذا، ولو كان كذا كنت سأعمل كذا، كل هذه المعاني لا قيمة لها، وإنما قد صرف الله عنه السوء، فلو نظر المرء النظر الصحيح لعلم أن الله تعالى قد صرف عنه سوءًا بذلك، فيقول بعد ذلك لو حدث هذا الأمر لكان خرابًا عليّ في ديني وآخرتي، وهكذا يؤمن أن ما نزل به من أقدار الله تعالى في هذه الحالة إنما يريد الله تعالى به الخير، وأن الله تعالى قد صرف ذلك عنه؛ إرادةً لمحبة الخير له من الله جل وعلا.

---

[1] - أخرج هذا الأثر عن ابن مسعود أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧٧/٨) وقال غريب، والذهبي في العلو (٨٠) وقال: إسناده قوي، وقال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٤٣٦): إسناده صحيح أخرجه الخطيب (١٤/٦) وأخرجه أيضًا : ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤/١، رقم ٢٦) وقال : لا يصح، والديلمى (٢٥٠/٥، رقم ٨٠٩٨) .

ولذلك خرّج الطبراني من حديث أنس -وإن كان هذا الحديث في سنده ضعف، وإنما المقصود المعنى عن النبي ﷺ يقول المولى -عز وجل- «**إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسطت عليه أفسده ذلك**»[1] فتجد العبد المفتقر المسكين دِينه عظيم، وكثيرًا ما شاهدنا هذا المفتقر المسكين متواضعًا وراضيًا بالله مستوراً يكفيه رزقه القليل، يجلس في المسجد ويقرأ القرآن ويصلي.. أما إذا فتحت عليه الدنيا يقال له أين أنت؟ يقول لك: أصل الموضوع، والمشاغل، وحدث كذا والدنيا، وأصل كذا وأصل كذا، وأضاع آخرته بسبب هذه الدنيا التي فُتحت عليه، الدنيا الزائلة التي لا قيمة لها، والتي ذكرنا في بداية الحديث أنه لو حفظ ربه؛ حفظ له هذه الدنيا التي لا قيمة لها؛ لذلك يقول: «وإن بسطت عليه أفسده ذلك» بسط عليه الدنيا أفسده، أول ما يفكر يفكر في الشهوات، ويفكر في البناء والشراء، كله توسع في الدنيا، ليس على معنى سيرة وسنة النبي ﷺ بل على معنى طلب أهل الدنيا بإرادة التوسع فيها.

لذلك يقول: «**وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من يطلب بابًا من أبواب الطاعة فأكفه عنه؛ لكي لا يدخله العجب في نفسه، إني أُدَبِّر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني عليم خبير**»[2].

وهذا الحديث كما أشرنا وإن كان ضعيفًا فنحن نتكلم عن المعنى الذي ينبغي أن يستخلصه المرء من مثل هذا الكلام، وهو أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، يحول بينه وبين

---

[1] - أخرجه ابن أبي الدنيا (٩/١) رقم (١)، وأبو نعيم فى الحلية (٣١٨/٨)، وابن عساكر (٩٥/٧) . والخطيب (١٤/٦) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤/١)، رقم (٢٦) وقال : لا يصح، والديلمى (٢٥٠/٥)، رقم (٨٠٩٨).

[2] - أخرجه ابن أبي الدنيا (٩/١) رقم (١)، وأبو نعيم فى الحلية (٣١٨/٨)، وابن عساكر (٩٥/٧) . والخطيب (١٤/٦) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤/١)، رقم (٢٦) وقال : لا يصح، والديلمي (٢٥٠/٥)، رقم (٨٠٩٨).

المعصية، ويحول بينه وبين ما يفسده، ويظل المرء يتسخط ويقول: لو كان كذا أو لو حدث كذا، كأنه هو الذي يريد أن يدبر أمور نفسه، ولا يترك ذلك إلى الله تعالى مع حسن التوكل، ومع الرضا بالقضاء، ومع اليقين في أن الله تعالى يدبر أمور عباده أحسن التدبير، ويحمل أمورهم -سبحانه وتعالى- على المعنى الذي يصلحهم في الدنيا والآخرة.

معية الله لعبده

نستأنف كلام النبي ﷺ يقول: «**احفظ الله تجده تجاهك**»، وفي رواية: «**احفظ الله تجده أمامك**» ومعنى الكلام: بعد أن ذكرنا حفظ الله تعالى لعبده فى قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**» وعلمنا كيف يحفظه تعالى في مصالح دنياه، وفي مصالح دينه، ثم هو يبشره بشرى جديدة، ويعطيه هبة من هباته، وعطية من عطاياه بعد ذلك -سبحانه وتعالى- يقول له: ليس ذلك كذلك فحسب ولكن إذا حفظته -سبحانه وتعالى- وجدته أمامك، هو الذي يحوطك -سبحانه وتعالى- من كل جهاتك، فإذا توجهت وجدته يوفقك، ويعينك، ويسددك، ويحفظك، وينصرك، ويؤيدك، سبحانه وتعالى.

يقول:«**تجده أمامك**» يعني: أن من حفظ حدوده -سبحانه وتعالى- وراعى حقوقه وجد الله تعالى معه في كل أحواله حيث توجه، يعني: ليس ماشيًا على الغفلة، وماشيًا على التقصير والتفريط، لا وإنما ذاهب إلى عمله وإلى دراسته وإلى شغله وإلى بيته وإلى مسجده وإلى صلاته وإلى ذكره؛ تحوطه عناية الله وحفظه وتسديده وتوفيقه؛ لأنه صار هذا العبد من عبيده -سبحانه وتعالى- والملك لا يفرط في جنوده، ويتركهم لأعدائه لا ما سمعنا عن ملك ولا عن قائد ولا عن رئيس ولا غيره يفرط في جنوده يعطيهم لأعدائه ليقتلوهم، أو ليفعلوا بهم الأفاعيل، والله

-سبحانه وتعالى- له المثل الأعلى؛ لذلك يقول: إن من حفظ حدود الله تعالى، وراعى حقوقه وجد الله تعالى معه في كل أحواله؛ حيث توجه يحوطه -سبحانه وتعالى-، وينصره، ويحفظه، ويوفقه، ويسدده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

قال قتادة في تفسير الآية: من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

وكتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد: فإن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو، وهذه المعية التي نتكلم عليها في هذا الجزء من كلام النبي ﷺ في قوله: «احفظ الله تجده أمامك» يعني: أنه معك حيثما توجهت

ومعية الله لعبده نوعان (وهذا كلام مهم فليحفظ):

معية خاصة.

ومعية عامة.

المعية خاصة، هي المذكورة في قوله -سبحانه وتعالى- لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وفي قول موسى -عليه السلام-: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقول النبي ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وأول معانيها التأييد والحفظ والإعانة،

ومعناها أن بين العبد وربه جل وعلا علاقة خاصة.

وانظر إلى هذه المعية الخاصة وأثرها بين الناس فهى تعني المحبة والتأييد والنصرة، فمعية الأخوة هذه تقتضي أن يكون بينهم علاقة من نوع آخر ليست كالعلاقة العامة بين الناس كلهم،

فإذا رأيت اثنين مثلاً بينهما خصوصية، أو علاقة فيها معنى من معاني الأخوة؛ فإنك تجد من توابع هذا المعنى أنه يقف له في الشدائد، ويشاركه في السراء مع ملازمته له وإفضائه بسره إليه، إلى غير ذلك من المعاني التي تقتضيها المعية الخاصة، وانظر كم نحن مفرطون في أن يكون بين المرء وبين ربه هذه المعية الخاصة التي تقتضي من الله تعالى الحفظ، والتأييد، والإعانة منه -جل وعلا- والنصر والمعونة.

لقد كان في قصصهم عبرة

قال الله تعالى في الآية الأولى: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] لما أمر المولى -سبحانه وتعالى- موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ﴾ [طه : ٤٥-٤٦] انظر إلى سياق الآيات؛ حتى ينشرح قلب المرء بهذه المعاني من الله تعالى ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٥-٤٦] لما قال: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ [طه : ٤٦] ترى سيصل إليهما أذى من فرعون وجنده والدنيا كلها؟ أو أن يبطش بهما؟ أو أن يقع عليهما ما يخافا منه؟ أو أن يقع عليهما سوء؟ أو أن يقع عليهما ما يكون سببًا لأذاهما؟ لا يمكن أن يكون ذلك، والله تعالى لما قال: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ [طه : ٤٦] يعني: لا يمكن أن يحدث لكما شيء ألبتة، ولو اجتمعت الدنيا ومن فيها من أولها إلى آخرها ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] -سبحانه وتعالى-، وذهب فعلاً موسى وهارون إلى فرعون هل حدث لهما شيء؟ تمكن فرعون منهما، أو استطاع أن يؤذيهما بشيء، أو أن يفعل معهما شيئًا؟ لم يحدث من ذلك شيء أصلاً..

وتبينه القصة التالية لما أخذ موسى قومه، وهرب منهم ومن فرعون، كما قال المولى -جل وعلا- هذه المعاني في سورة الشعراء: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] مدركون كيف ذلك؟ لما خرج موسى بقومه تبعهم فرعون وجنوده.... وصل موسى بقومه إلى البحر، فصار البحر أمامهم، وفرعون وجنوده وراءهم، لم يكن لهم مفر حينئذ؛ حتى إنهم ثاروا على موسى -عليه السلام- وخافوا ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] انتهينا، انظر إلى الثقة في الله تعالى، وإلى معية الله تعالى الخاصة التي ذكرنا، ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦٢] فرعون وقومه وراءهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦٢] يعني: هو يجري وراءه ليدركه انتهى سيقبض عليه ويموت يقول له: كلا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢] ربنا سينقذنا وسيصل بنا في طريق الهداية التي لا يتمكن فرعون ولا الدنيا كلها منه ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢- ٦٥]. المقصود في هذه الآية أن يرى المرء يقينه في الله تعالى، وحسن توكله عليه، وأنه طالما كان الله معه؛ فلن يصل إليه أحد، ولو اجتمعت الدنيا من أولها إلى آخرها: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٢-٦٣] وكانت العاقبة ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يعني: وجدوا الماء واقفًا مثل الجبال، ماء ثم طريق يابس، وماء وطريق يابس اثنا عشر طريقًا لا يستطيعه أحد في الدنيا الآن لا أحد يعرف أن يفعلها ولا أن يصنعها، أن يوقف الماء في الهواء، وبعده مكان جاف، ويوقف بعض الماء في الهواء ومكان جاف، قال ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٢-٦٣] البحر ضربه بالعصا انفلق، وهذا تبيين لقدرة الله تعالى وقوته سبحانه وتعالى.

لما كانت تحدث هذه القصص أمام السحرة، العصا وانقلابها إلى حية وغيره.... وجد أحدهم سيدنا موسى عليه السلام نائمًا أخذ العصا وضرب بها فوجدها عصا عادية لا تفعل أي شيء، عصا كأخواتها من أغصان الشجر، كما كانت في سابق عهدها ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ١٧-١٨] لا أكثر ولا أقل...

وهذا المعنى قد ذكرناه في قصة النبي ﷺ في الهجرة لما قال أبو بكر ﷺ وقد اجتمع المشركون على باب الغار: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا،[1] لو مد أحدهم يده لأمسك بنا، قال له النبي ﷺ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] لم يقل: لا تخف، وهذه فارق في درجات النبوة فمن قرأ الآيات وتمعن فيها وجد فى الآية الأولى ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾ [طه : ٤٦]، وفي الثانية قال: ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ [التوبة : ٤٠] وصل إلى هذا المعنى وهو أن النبي ﷺ لم يتطرق الخوف إلى قلبه البتة -صلوات الله وسلامه عليه-؛ لذلك لم يقل له: لا تخف إن الله معنا؛ قال: ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ [التوبة : ٤٠] لا تحزن، لن يحدث شيء، ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] من أجل ذلك ذكرنا هذا المعنى الذي يجب أن يتقوى به أهل الإيمان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] وهو أن معه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وقد ذكرنا هذه المقارنة لو قال: إن الدنيا معنا، والآخرة معنا، والجن والإنس، والأسلحة والعتاد والعساكر معنا هل توازي قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠]؟ لا توازيها في شيء البتة، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة : ٤٠].

---

[1] - رواه البخاري (٣٤٥٣) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ومسلم (٦٣١٩) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. كلاهما يرويه من حديث أنس بن مالك ﷺ ولفظه (عن أنس عن أبي بكر ﷺ قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما).

هذه المعية الخاصة التي ينبغي أن تستشعرها قلوب أهل الإيمان، وكيف يجد لهذه المعية نتيجة وعاقبة حسنة في القول والعمل والاعتقاد، ويجد لهذه المعية أثرها في أن الله معه وسيحفظه، وسيحرسه، ويؤيده، وينصره، ويمنعه، ولكن هذه المعية -كما أشرنا- لا تخرج إلا من قلوب قد استيقنت بها، وقلوب قد حفظت ربها؛ فحفظها، وقلوب متعلقة بالله تعالى تعلم يقينًا أن الله معها، كما قال النبي ﷺ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] وكما قال موسى عليه السلام ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢]، لا يصلح أن يقولها أي أحد، لو قلنا لواحد منا: هناك من ينتظرك للقبض عليك... لن يستطيع أن يقول ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠]، ما زال القلب مترددًا خائفًا وجلاً لا يتخيل أن قوة الله تعالى أقوى، وقدرته أقدر، وأنه -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير -جل وعلا- ؛ لذلك لا يصل إلى هذا المعنى إلا من وقَر في قلبه الثقة في الله، واليقين فيما عنده، وحسن التوكل عليه، والاطمئنان إلى ذكره -جل وعلا-، وعدم الخوف إلا منه، والرجاء فيه، فإذا وصل إليه وصل إلى هذه المعية التي يحفظ الله تعالى بها عبده من السوء والمعصية، ومن الشبهات، ومن الشهوات، ويحفظه -سبحانه وتعالى- من المعاصي، ويحول بينه وبين قلبه أن يقع في شيء من ذلك؛ فرأيته في حفظ الله تعالى، كما ذكر الحديث: «**احفظ الله تجده أمامك**».

معية الله العامة وعلمه واطلاعه

والمعية العامة معناها أن الله تعالى مع كل أحد، كما قال تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة : ٧] -سبحانه وتعالى- وكذلك قوله -جل وعلا-: ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء : ١٨] فيظهر من هذه الآيات أن هذه المعية

تقتضي علم الله تعالى، واطلاعه، ومراقبته لخلقه جميعًا، ولأعمالهم، وهذه المعية مع كل أحد، ليست مختصة بأهل الإيمان، وإنما المختص بأهل الإيمان والتقى المعية الخاصة، التي تقتضي -كما ذكرنا- النصر والتأييد والمعونة والحفظ والكلأ.

ومن حفظ الله تعالى وراعى حقوقه وجده أمامه -سبحانه وتعالى- وتجاهه على كل حال؛ فاستأنس به عن الخلق، واستغنى به -سبحانه وتعالى- عنهم فهو الكفيل به، المتكفل برزقه وأجله، وبحفظه هو وقلبه، والمتكفل بعمله وقوله، المتكفل بكل حاله، سبحانه وتعالى .

وروي عن بنان الحمال أنه دخل البرية وحده على طريق تبوك فاستوحش يعني: دخل وحده فاستوحش،....

واعلم أن هذه الوحشة لا تحدث إلا أن يكون المرء قليل المعرفة بالله -سبحانه وتعالى- ضعيف القرب منه تجده يستوحش لو وجد نفسه وحيدًا فلا يُرى جالسًا يعبد الله تعالى، بل يود أن يستأنس بالخلق، ويجلس معهم، وهذا دليل على عدم الاستئناس بالله تعالى، وأن القلب لم يخلص بعد لله -جل وعلا-، بل ما يزال يستأنس بالخلق، ويستوحش أن يكون ربه وحده معه -سبحانه وتعالى-.

فهتف به هاتف: لم تستوحش؟ أليس حبيبك معك؟ أليس الله تعالى معك؟

إذا جلس وحده يذكر ربه تعالى لا يكسل ولا يمل على عكس أحوالنا، المرء إذا كان وحده نام عن الطاعة، وكسل عنها، وإذا كان بينه وبين إخوانه وجدته يصلي ويقوم ويجتهد، وهذا دليل على الاستئناس بالخلق، وعدم الاستيحاش منهم والاستئناس بالله تعالى، وحسن المراقبة له، وحضور القلب معه -جل وعلا-.

لذلك لما قيل لأحدهم: ألا تستوحش وحدك؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول:«أنا جليس من ذكرني» [1] -سبحانه وتعالى-.

وقيل لآخر: نراك وحدك! فقال: من يكن الله معه؛ فكيف يكون وحده؟

وقيل لآخر: أما معك مؤنس؟ أليس معك من يؤنسك في سيرك وركوبك ومشيك وجلوسك؟ قال: نعم. قال: أين هو؟ قال: أمامي ومعي وخلفي، وعن يميني وشمالي وفوقي....

[1] - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٢٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٠) وقال السيوطي في الدرر المنتثرة (٣٣): فيه محمد بن جعفر وشيخه متروكان، وزيد العمي ليس بالقوي. ولفظ الحديث عن أبي عن كعب قال : (قال موسى عليه السلام : يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فقيل له : يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال: إني أكون على حال أجلك عنها قال: ما هي يا موسى ؟ قال : عند الغائط والجنابة قال : اذكرني على كل حال).

تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة

يقول ﷺ: «**تعرف إلى الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة**» ومعناه: أن العبد إذا اتقى الله تعالى، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه كما ذكرنا في معنى فوله ﷺ: «**احفظ الله**» يعني: احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه...

من حفظ حدوده وحقوقه -سبحانه وتعالى- وراعى ذلك كله، وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه؛ فإنه يكون بذلك قد تعرف إلى الله.

وهذا التعرف إلى الله تعالى ينبغي أن يحصله المرء في الرخاء، عندما يكون في سعة من وقته، وفي سعة من جهده، وفي سعة من بقية أحواله التي ينتظر بعد ذلك ألا تستمر هذه الأحوال، إذ يمكن ألا يجد وقتًا، وإن وجد وقتًا قد لا يجد جهدًا، وإن وجد ذلك، وجده وهو مضيَّقٌ عليه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فقد وجه النبي ﷺ المرء بعد أن قال: «**احفظ الله تجده تجاهك**» تجده أمامك وخلفك كما ذكرنا في معية الله تعالى لعبده المعية الخاصة؛ ذكره هنا بأنه إذا تعرف إلى الله تعالى في الرخاء؛ فإنه ما إن تنزل به شدة في أمر الدين والدنيا إلا وجد الله -تبارك وتعالى- بمعرفته السابقة فى رخائه ينجيه من هذه الشدائد، ومن الذي لا يقع في شدائد الدنيا والآخرة؟ ومن الذي قد استقامت أحواله في الدنيا والآخرة؟

أنتم الفقراء إلى الله

فالمعنى إذن: أن كل أحد محتاج إلى ربه -سبحانه وتعالى- خاصة في أوقات الشدة، أوقات الضيق والضر والمرض والقلة والافتقار وغير ذلك مما يمر به المرء في هذه الحياة...

فإذا كان هناك سابق معرفة بين العبد وبين الله تعالى؛ ووقع العبد فى الشدة والضر يعرفه ربه حينئذ؛ لأنه قد تعرف إلى الله تعالى فى رخائه، وقدم من العمل الصالح ما يكون سببًا لمعرفة ربه له عندما تنزل هذه الشدائد فيكون هذا العمل الصالح سببًا لتفريجها، ورفع كرباتها، وإنزال الرحمة عليه، والله -تبارك وتعالى- كريم إذا ما حدث ذلك لعبده يوشك -سبحانه وتعالى- أن يُنْعِشَه بما ينزل عليه من الرحمة، ويفرج عنه الكرب والضيق،... ومعلوم أن الدنيا كلها في ضيق اليوم فقلما يخلو أمر من هذه الأمور التي نحن فيها اليوم إلا وفيه ضيق وضنك ونكد وشدة وحزن، وأنكاد متواصلة لا تصفو منها حياة المسلمين اليوم.

وطريقهم إلى رفع ذلك، وإلى تفريجه أن يتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء؛ لكي يدركهم ﷻ في هذه الشدائد، وإنما قد تخلى عنهم في هذه الشدائد ﷻ؛ لأنهم لم يعرفوه المعرفة الحقة فى الرخاء التي تكون سبب معرفته إياهم في الشدائد -سبحانه وتعالى- من نسيانهم ربهم ﷻ، وحقوقه، وتعديهم حدوده، وعدم التزامهم بأوامره، فارتكبوا نواهيه، ولجوا في ذلك، وعتوا عتوًا كبيرًا، ثم ينتظرون من ربهم في الشدة أن ينظر إليهم، أو أن ينزل عليهم رحمته، أو أن يرفع عنهم بلاءهم، كيف ذلك؟!....

إن العبد إذا اتقى الله تعالى، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه؛ فقد تعرف بذلك إلى الله -جل وعلا-، وصار بينه وبين ربه تلك المعرفة الخاصة، ليست كالمعرفة العامة، إذ كل إنسان يعرف ربه -سبحانه وتعالى- من عموم المؤمنين، ولكن ليس كل أحد قد قدم من الأعمال الصالحة ومراعاة الحدود والحقوق والواجبات والوقوف عند النواهي لا يقع فيها، ما يكون السبب فى وجود المعرفة الخاصة بينه وبين ربه جل وعلا.

أنت تعرف أناسًا كثيرين، فهل وقفت إلى جوار كل أحد منهم في شدته؟ لا، وإنما من كان بينك وبينه المعرفة الخاصة هو الذي توليه هذه العناية، وتقوم له بحق هذه المعرفة؛ لذلك يقول:

فقد تعرف إلى الله تعالى بذلك، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة؛ فعرفه ربه -سبحانه وتعالى- في الشدة، وراعى المولى له تعرفه له في الرخاء، يعني: قام برعاية تلك المعرفة له في الرخاء إذا نزلت به الشدة؛ فنجاه منها بهذه المعرفة، وهذه المعرفة معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من الرب -سبحانه وتعالى-، ومحبته له، وإجابته لدعائه.

المعرفة نوعان

فمعرفة العبد لربه نوعان، ومعرفة الرب لعبده نوعان، فالأولى: وهي معرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به -سبحانه وتعالى- والتصديق والإيمان، وهذه عامة لكل المؤمنين، أنه مقر بربه، مصدق به، مؤمن به -سبحانه وتعالى.

والثاني: معرفة خاصة من العبد للرب -سبحانه وتعالى- وهذه المعرفة الخاصة من العبد للرب، لا يستطيع المرء أن يشير إليها فضلاً أن يتكلم عنها باختصارإذ تقتضي هذه المعرفة ميل القلب إلى الله تعالى بالكلية، والانقطاع إليه -سبحانه وتعالى-، والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون..

كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله -عز وجل- بهذه المعرفة الخاصة. عندما يكون بينك وبين واحد من الناس معرفة خاصة هذه المعرفة تقتضي منك ألا تفارقه في ليلك ولا نهارك، وإن غاب افتقدته وسألت عنه، وإن مرض عدته، وإن وقع في شدة أنجيته، وكنت معه كظله -كما يقال- تتألم لألمه، وتفرح لفرحه، وتحزن لحزنه.....

ولله تعالى المثل الأعلى فهذه المعرفة الخاصة من العبد تقتضى أن يحب ربه، ويقبل عليه، ويطمئن بذكره -سبحانه وتعالى- ويهابه، ويجله، ويأنس به، وينقطع إليه، ويميل قلبه له، كل هذه المعاني إذا لم تتحقق كلها أو يتحقق شيء منها للمؤمن ليس ثَم معرفة خاصة له بالله تعالى، وإن تحققت له تحقق له من الرب هذه المعرفة الخاصة التى تقتضى أن تكون هناك معرفة خاصة من الرب للعبد.

ومعرفة الله تعالى لعباده نوعان: معرفة عامة: وهي علمه -سبحانه وتعالى- بعبده، واطلاعه عليه، وعلى ما أسره في نفسه، وما أعلنه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق : ١٦]..

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] فهذه هي المعرفة العامة من الرب -سبحانه وتعالى- للعبد.

أما المعرفة الخاصة من الرب للعبد وهي المهمة لك التي ينبغي أن تتفكر فيها، وأن تعلم مدى تقصيرك في تحصيلها، وأن تحزن على ضياع حظك منها من الله -سبحانه وتعالى-... هي نجاتك وسعادتك في الأولى والآخرة!...

يقول: *والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي محبته لعبده، وتقريبه إليه، هو يقربه طالما قد نشأت هذه المعرفة بينه وبين ربه فإذا بالله تعالى يحب عبده، ويقربه إليه -سبحانه وتعالى-، ويجيب دعاءه، وتقتضي كذلك إنجاءه من الشدائد..*

*وهي المشار إليها في قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»**[1]، وفي رواية: **«ولئن دعاني لأجيبنه»** هذه المعرفة التالية.*

[1] - رواه البخاري (٦١٣٧) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته).

وقد ضرب الشيخ هنا عدة أمثلة؛ ليعلم المرء تحقق هذا المعنى يعني: لما عرف الرب عبده المعرفة الخاصة؛ قرّبه إليه، وأحبه -سبحانه وتعالى-، واستجاب دعاءه، وأنجاه من الشدائد، وفرج عنه، ووقف له -سبحانه وتعالى- عندما يكون أحوج إلى ذلك.

يقول: لما هرب الحسن ﷺ من الحجاج دخل إلى بيت حبيب أبي محمد ﷺ فقال له حبيب: يا أبا سعيد أليس بينك وبين ربك ما تدعوه؛ فيسترك من هؤلاء؟ ادخل البيت، فدخل الحسن ودخل الشرط -العساكر- على إثره؛ فلم يروه، فذكر -أي الشرط- ذلك للحجاج؛ فقال: بل كان في البيت إلا أن الله تعالى طمس أعينكم؛... طمس أعينهم فلم يروه، الحجاج نفسه مؤمن بذلك، ويعترف به!... هذه القصة لا نقولها للتسلية، بل هي واقعة، وكما يقال: كرامات الأولياء دليل على معجزات الأنبياء، كذلك: لما دخل النبي ﷺ الغار -وقد ذكرناها في المعية- لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. لو مد أحدهم يده لأمسك بنا. فقال النبي ﷺ: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**[1] لم ينظروا، ولما نظر من نظر لم ير شيئًا، أليس كذلك؟...

واجتمع الفضيل بن عياض[2] بعابدة فسألها الدعاء؛ فقالت: يا فضيل وما بينك وبينه ما إن دعوته أجابك؟ فغشي على الفضيل.... تعني: أليس بينك وبين الله تعالى تلك المعرفة التي تقول: يا رب؛ فيقول: نعم عبدي.. وقد ذكرنا هذا في أحاديث كثيرة بحمد الله ﷻ....

---

[1] - سبق تخريجه.

[2] - الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى؛ الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام أبو على التميمى اليربوعى الخراسانى المجاور بحرم الله تعالى. ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد، وارتحل فى طلب العلم. قال ابن عيينة: فضيل ثقة، وقال العجلى: كوفى ثقة متعبد رجلٌ صالح سكن مكة. وقال أبو حاتم: صدوق، وقال النسائى: ثقة مأمون رجل صالح. وقال ابن المبارك: إن الفضيل بن عياض صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه، فالفضيل ممن نفعه علمه. للاستزادة من أخباره رحمه الله تعالى: انظر الذهبى (٦/٢٣٤).

لطف الله وإعانته للمتقين عند الشدائد

يقول الشيخ: *وفي الجملة مَن عامَل الله تعالى بالتقوى والطاعة في حال رخائه؛ عامله الله تعالى باللطف والإعانة في حال شدته...*

وهذا ما ينبغي لأهل الإيمان أن يستغلوا فيه أيامهم وأوقاتهم، فإذا ما كانوا في الرخاء والسعة والصحة والوقت والفراغ استغلوا ذلك كله؛ حتى لو لم يصابوا في الدنيا بشيء وجاءت سكرات الموت وقف لهم المولى -سبحانه وتعالى- في شدتهم وكربهم... هذه واحدة.

الثانية: أحوالك كما ذكرنا في أمور دينك وآخرتك متقهقرة متردية، وتحتاج إلى الله تعالى أن تتعرف إليه؛ ليقف لك فيها، وليثبت أقدامك، وليشرح صدرك، وليحفظ عليك إيمانك، وليداوم عليك طاعاتك..

إن الناس في الرخاء أقرب ما يكونون إلى الدعة، وإلى السكون، وإلى إعطاء النفس راحتها، وإلى النوم والكسل، وإلى الغفلة والبعد؛ ومع ذلك عندما تأتيهم الشدائد في العبادة، أو في شدائد الدنيا من يجيبهم؟ لا يرفعون أكفهم إلا إلى الله تعالى.

خرّج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد؛ فليكثر الدعاء في الرخاء**»[1] من سره أي: من أراد أن يرى السرور في الشدة، والتفريج للكُرَب؛ فليكثر الدعاء عند رخائه؛ ليجد أثر ذلك عند شدائده، فإذا كنت في أيامك مطيعًا ومقبلاً وحافظاً لحدوده، وواقفًا عندها ومراعيًا لحقوقه، وممتثلاً لأوامره، ومنتهيًا عن نواهيه، وتتقرب إليه بالنوافل، وأصابك الشيطان والنفس والهوى، ووقعت في التقصير

[1] - رواه الترمذي (٣٣٨٢) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال: حديث غريب، والحاكم في المستدرك (١٩٩٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، كلاهما يرويه من حديث أبي هريرة ﷺ.

والتفريط إذا برحمة الله تعالى تنتشلك وتحيطك مما وقعت فيه، وإذا بدعائك في الرخاء يقف لك عند الشدة.

وخرّج ابن أبي حاتم وغيره عن أنس مرفوعاً أن يونس -عليه السلام- لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة: يا رب هذا صوت معروف من بلاد غريبة، الصوت معروف، لكن أين لا نعرف؛ فقال الله -عز وجل-: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء؛ فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. قال: فأمر الله تعالى الحوت فطرحه في العراء.

وهذه القصة -بغض النظر عن السند، ففي سندها مقال- إنما معناها قد ذكره المولى -سبحانه وتعالى- بقوله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣-١٤٤] يعني: لولا أنه كان من المصلين الداعين في رخائه؛ لما استجيب له دعاؤه في الشدة، وللبث في بطن الحوت إلى يوم يبعثون، وهذا كان ليونس -عليه السلام- فما بالك بنا؟ يعني: لما يقال عن يونس - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام-: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣-١٤٤] فكيف بنا نحن إن كان يونس عليه السلام سيلبث إلى يوم يبعثون؟!...

فلنبادر إلى انتهاز أيام الرخاء؛ فلعلها لا تعود، وكلنا ينتظر فيها رحمة الله تعالى.

قال الضحاك بن قيس: اذكروا الله تعالى في الرخاء؛ يذكركم في الشدة، وإن يونس -عليه السلام- كان يذكر الله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله -عز وجل-: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٤٣-١٤٤] ، وإن فرعون كان

طاغيًا ناسيًا لذكر الله -جل وعلا- فلما أدركه الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس : ٩٠] قال الله تعالى له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس : ٩١] ، لا ليس الآن.

فينبغي أن تصلح أحوال نفسك، حتى لا يقال لك: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس : ٩١] .

وقال سلمان الفارسي ﷺ : إذا كان الرجل دَعَّاءً في السراء، فنزل به ضراء فدعا الله تعالى؛ قالت الملائكة: صوت معروف؛ فشفعوا له، أي: هذا صوت معروف بين الحين والآخر يصعد منه إلى الله تعالى دعاء وعمل صالح، فيشفعوا له، وإذا كان ليس بدَعَّاءٍ في السراء فنزلت به ضراء فدعا الله -تبارك وتعالى- قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف، فلا يشفعون له[1] .

قال رجل لأبي الدرداء: أوصني. قال: اذكر الله تعالى في السراء؛ يذكرك الله -عز وجل- في الضراء، وعنه -أي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: ادع الله في يوم سرائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك.

الموت أعظم الشدائد

وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت، وما بعده -أي ما بعد الموت- أشد منه إن لم يكن مصير العبد إلى خير، فالواجب على المؤمن الاستعداد للموت وما بعده في حال الصحة بالتقوى والأعمال الصالحة، قال الله -عز وجل-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر : ١٨-١٩].

[1] - رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٦١) رقم (٢٩٤٨٠).

فمن ذكر الله تعالى في حال صحته ورخائه، واستعد حينئذ للقاء الله -جل وعلا- واستعد للموت وما بعده؛ ذكره الله -جل وعلا- عند هذه الشدائد؛ فكان معه فيها..

وأصعب شيء ينزل بالمرء في الدنيا هو الموت، إذ لو استطاع أن يصرخ، أو أن يستغيث لأسمع صوته الثقلين؛ فإذا نزل الموت بالمؤمن المستعد له أحسن الظن بربه -جل وعلا-، وجاءته البشرى من الله؛ فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه. وكان الله -سبحانه وتعالى- معه عند هذه الحال، فلطف به، وأعانه، وتولاه، وثبته على التوحيد -سبحانه وتعالى-؛ فلقيه وهو عنه راضٍ -سبحانه وتعالى-. فحينئذ يفرح المؤمن ويستبشر بما هو قادم عليه... روح وريحان ورب غير غضبان.

والفاجر بعكس ذلك، فإنه نسي الله تعالى في حال صحته ورخائه، ولم يستعد حينئذ للقاء الله -جل وعلا- فنسيه الله -عز وجل- في هذه الشدائد فأعرض عنه وأهمله؛ لأنه طالما أهمل حق ربه ﷻ، ونسيه وغفل عنه... حينئذ يندم المفرط ويقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وانظر إلى بعض المعاني من كلام السلف الصالح الذي يبين لنا كيفية الرجاء، وكيف استعدوا في أيام الرخاء حتى إذا نزل عليهم الموت كانوا على هذه الحال الحسنة من محبتهم للقاء الله تعالى، ومحبة الله تعالى للقائهم، فيستبشرون ببشرى الله لهم.

يقول أبو عبد الرحمن السلمي[1]: كيف لا أرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان، ثمانين

[1] - أبو عبدالرحمن السلمى رضى الله عنه؛ عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفى الإمام العلم مقرئ الكوفة، من أولاد الصحابة الكرام، مولده فى حياة النبى ﷺ، قرأ القرآن وجوده ومهر فيه وعرض على عليّ وابن مسعود، وحدث عن عمر وعثمان وطائفة. قال أبو إسحاق: كان أبو عبد الرحمن السلمى يقرئ الناس فى المسجد الأعظم أربعين سنة. للاستزادة من أخباره رحمه الله: انظر الذهبى (١٤٢/٤) وابن حجر (١٦١/٥) والمزى (٤٠٨/١٤) وأبو نعيم فى الحلية (١٩٢/٤) والخطيب فى تاريخه (٤٣١/٩).

رمضان قد صامه في أيامه يعده لهذا اليوم، لهذه الشدة، لهذا الكرب، ألا يرجو ربه حينئذ؟ بلى يرجو ربه، ويطمع في مغفرته، وينتظر بشراه، سبحانه وتعالى.

وقال أبو بكر بن عياش[1] لابنه عند موته: أترى الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة؟!

وختم آدم بن أبي إياس[2] القرآن وهو مسجى للموت فقد كان في ورده لم ينقطع عنه حتى ختم القرآن، ثم قال يدعو ربه -سبحانه وتعالى-: ألا رفقت بي في هذا المصرع، ألا رفقت بي في هذا المصرع.

ولهذا قال قتادة[3] في قوله -عز وجل-: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] قال: من الكرب عند الموت، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الطلاق : ٢] يعني: في الدنيا فالله ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] من كروبه عند موته.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] قال: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة.

---

[1] - أبو بكر بن عياش رضى الله عنه؛ ابن سالم الكوفى الأسدى مولاهم، المقرئ الفقيه المحدث شيخ الإسلام وبقية الأعلام. قرأ القرآن على عاصم وهو شعبة راويه المبرز. قال عنه أحمد بن حنبل: ثقة ربما غلط، صاحب قرآن خير. وقال ابن المبارك: ما رأيت أحداً أسرع إلى السنة من أبي بكر بن عياش. وقال يحيى بن معين: ثقة. لما حضرته الوفاة بكت أخته فقال لها: ما يبكيك؟! انظرى إلى تلك الزاوية فقد ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة. للاستزادة من أخباره رحمه الله: انظر الذهبى (٢٧٧/٦).

[2] - آدم بن أبي إياس رضى الله عنه؛ الإمام الحافظ القدوة شيخ الشام أبو الحسن، سمع بالعراق ومصر والحرمين والشام. قال أبو حاتم الرازى: ثقة مأمون متعبد من خيار عباد الله. للاستزادة من أخباره رحمه الله تعالى: انظر الذهبى (١٦٠/٧) والمزى(٣٠٦/٢) والخطيب البغدادى فى تاريخه (٢٩/٧).

[3] - قتادة بن دعامة رحمه الله تعالى؛ من بنى بكر بن وائل، وهو حافظ عصره قدوة المحدثين والمفسرين، وكان من أوعية العلم وممن يضرب به المثل فى قوة الحفظ. قال ابن سيرين: قتادة احفظ الناس، وقال بكر المزنى: من سره أن ينظر إلى أحفظ من أدركنا فلينظر إلى قتادة. للاستزادة من أخباره رحمه الله: انظر الذهبى (٤٨٨/٤).

وقال زيد بن أسلم في قوله -عز وجل-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : ٣٠] لم يعولوا على شيء غيره -سبحانه وتعالى- إلى أن لاقوا ربهم، يقول: يبشر بذلك عند موته يعني: تنزل عليه الملائكة تبشره عند موته بهذا القول، وهو ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] يعني: ألا تخافوا مما أنتم مقدمون عليه، وألا تحزنوا على ما فاتكم من أهل ومال؛ فقد جبركم الله تعالى وكفاكم، فتبشرهم الملائكة بعدم الخوف من أهوال وكرب الآخرة ابتداء من الموت، وما بعده، وكذلك ألا يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا.

يقول: *تنزل فتبشره الملائكة بذلك عند موته، وفي قبره، ويوم يبعثون*؛ فإنه -أي: المؤمن المستقيم- لفي الجنة، وما ذهبت فرحة البشارة- أى التي بشرها عند موته وفي قبره - من قلبه.

قال ثابت البناني[1] في هذه الآية: بلغنا أن المؤمن حين يبعث من قبره، أو حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه في الدنيا؛ فيقولان له: لا تخف ولا تحزن؛ فيؤمِّن الله تعالى خوفه، ويقر الله تعالى عينه، فما من عظيمة تغشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين؛ لما هداه الله تعالى، ولما كان يعمل في الدنيا.

السؤال والافتقار لله وحده

ونستأنف كلامه ﷺ المشرف بقوله: **«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»** ومعنى هذا: أنك قد حفظت حدود الله تعالى، وراعيت حقوقه، وتعرفت إليه في الرخاء، فهذا

[1] - ثابت البنانى رحمه الله تعالى؛ بن أسلم البُنَانى وبُنَانة: هم بنو سعد بن لؤى بن غالب، الإمام القدوة شيخ الإسلام. قال أحمد بن حنبل: ثابت تثبت فى الحديث، وقال العجلى: ثقة رجل صالح، وقال أبو حاتم الرازى: أثبت أصحاب أنس بن مالك: الزهرى ثم ثابت ثم قتادة. للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى (٤/٤٥٩).

دليل على أن المرء صار متعلقًا بربه، مستأنسًا به، لا يلجأ إلا إليه، ولا يدعو إلا إياه؛ قد تقرب إليه، وأحبه وتعلق به وصارت بينه وبين ربه - جل وعلا- معرفة خاصة، وكذلك معية خاصة التي ذكرناها: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ [طه : ٤٦] مما يبين أن أول لجوء للمرء لا يكون إلا إليه، وأن أي استعانة له لا تكون إلا بالله تعالى. لتحقق التوحيد الكامل في قلبه لله -جل وعلا-؛ فلم يأنس بمخلوقين، ولم يطمئن إليهم، ولم يطمئن إلى الزائل في الدنيا، وإنما ركونه وثباته إلى الله تعالى.

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» يقول: *فإن السؤال لله تعالى هو دعاؤه، والرغبة إليه، والدعاء هو العبادة، كما في الحديث الصحيح الذي خرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه:* ***«الدعاء هو العبادة»***[1] *وتلا قوله سبحانه وتعالى:* ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] .

فعلى المؤمن أن يسأل المولى -سبحانه وتعالى- ولا يسأل غيره -جل وعلا- وأن يستعين به دون غيره -سبحانه وتعالى-، فأما السؤال فقد أمر الله تعالى بمسألته قائلاً: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء : ٣٢]، وشدد المولى -سبحانه وتعالى- على عباده أن يسألوا غيره -سبحانه وتعالى- ، وأن يعلموا أنهم متى دعوا ربهم -جل وعلا- استجاب لهم، وأنه -سبحانه وتعالى- لا يرفع عبده يديه إليه ويردهما صفرًا خائبتين[2]، بل يردهما مملوءتين، فذلك من كرمه وجوده، فإذا وقف السائل ببابه، وهو أكرم الأكرمين الغني ذو الرحمة -جل وعلا- لا يرده خائبًا.

---

[1] - رواه أبو داود (١٤٨١) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ والترمذي (٢٩٦٩) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحاكم في المستدرك (١٨٠٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، كلهم يرويه عن النعمان بن بشير ﷺ.

[2] - رواه أبو داود (١٤٩٠) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ ، والترمذي (٣٥٥٦) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال: هذا حديث حسن، كلاهما يرويه من حديث سلمان الفارسي ﷺ ولفظه (عن سلمان الفارسي ﷺ : قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحي من عبده إذا رَفَعَ إليه يديه أنْ يَرُدَّهُما صِفْرا خَائِبَتَيْنِ»).

تُرى لو وقفت بباب أحد من الدنيا يمكن أن يردك، ويقول لك: تعال غدًا، أو يقول: هذه الأيام ليس هناك سيولة، وكذا وكذا، وتأخذ اعتذارات طويلة عريضة من أهل الدنيا؛ لذلك قيل:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

تلح عليه في السؤال يغضب، ويقول لك: هذا يكفي أنت آذيتنا، وحين يعلم أنك قادم للموضوع الفلاني يقول لهم: قولوا له: غير موجود، أو نائم، أو خرج، أو مسافر!!

وهكذا أحوال هذه الدنيا؛ لذلك فإن سؤال الناس لك يبين معرفتك بربك، وإقبالك عليه -سبحانه وتعالى- ، ومحبتك له، يبين توحيدك لله -جل وعلا- ويبين هذه المسألة المهمة التي يجب ألا ينساها المرء، وألا يفرط فيها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠] ، المرء منا يستعظم أن يجيبه ربه -سبحانه وتعالى-!!.... ، ويقول: أنا أريد كذا وكذا في الدنيا، لكن من أين؟ وكيف؟ وكأنه تشكيك في قدرة الله تعالى وقوته، وكرمه وجوده، وكأن الله تعالى لم يعط أحدًا، ولم يوسع على أحد، ولم يستجب دعاء أحد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؛ أما أهل المحبة والتوحيد والقرب من الله -جل وعلا- يعلمون أنهم متى دعوا ربهم استجاب لهم، وقد يؤخر الإجابة لمصلحتهم، أو يؤخرها لهم إلى الآخرة؛ فيرون من فضل الله -تبارك وتعالى- ما يود أحدهم ساعتها أن الله لم يستجب له شيئًا في الدنيا، أو أن الله تعالى قد أخّر كل الإجابة لهذه الأسئلة والدعاء إلى الآخرة؛ فالله -تبارك وتعالى- لا يرد دعاءً إما أن يرفع عن عبده من البلاء بقدر دعائه، أو أن يستجيب دعاءه، أو يؤخره له يوم يكون المرء أحوج شيء إلى فضل الله تعالى ورحمته ومغفرته[1].

[1] - أخرجه الترمذى (٥/٥٦٦)، رقم (٣٥٧٣) وقال : حسن صحيح غريب. وعبد الله بن أحمد فى زوائده على المسند (٥/٣٢٩)، رقم (٢٢٨٣٧)، والضياء (٨/٢٦١)، رقم (٣١٦) وقال: إسناده حسن. وأخرجه أيضًا: الطبرانى فى

لذلك يقول: *وفي الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل»*[1]، الله تعالى يحب أن يسأله عبده، يحب أن يدعوه، فيقول: أي ربي، لأنه خلقه لذلك، فلا تنزل به المصيبة، أو البلاء، أو أن يقع في الشدة ويقول: سآتي فلاناً، وفلان إن شاء الله يقرضني، وفلان يقف معي، وفلان يتوسط لي، أين ذلك من توحيد الله تعالى؟

هذا لا ينبغي أبدًا أن يكون من أهل الإيمان، وإنما يجب أن يتعلموا كيف يدعون ربهم، وكيف يلحون عليه في الدعاء -سبحانه وتعالى-، وكيف يتأدبون بأدب الدعاء المستجاب؛ حتى يستجيب لهم ربهم -سبحانه وتعالى-، وأن يعلموا أن الله تعالى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض -جل وعلا- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤]، وأنه يحب أن يسأله عبده، وأن يتملقه، وأن يدعوه، وأن يتحنن إليه، وأن يظهر له -سبحانه وتعالى- الافتقار والمسكنة، وأنه لا إله غيره، ولا يجيبه سواه، ولا يعطيه ويوسع عليه إلا هو، ولا يرفع ما به إلا الله، وأنه القادر على ذلك ومولاه -سبحانه وتعالى-، وأنه إذا لم يعطه لن يعطيه أحد، وإذا حرمه فهو المحروم، وإذا منعه فلو اجتمعت الدنيا على أن يعطوه شيئًا ما أعطاه أحد شيئًا، فإذا تعلم ذلك كان أنفع له من كثير من العبادات، التي يتخيل أن فيها صلاحه، أو أن فيها قربه إلى ربه جل وعلا.

الأوسط (٥٣/١)، رقم (١٤٧) قال الهيثمي (١٤٧/١٠) : فيه مسلمة بن علي، وهو ضعيف. ولفظ الحديث (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يعجل قالوا: يا رسول الله وما استعجاله؟ قال: يقول قد دعوت ودعوت، فلم يستجب لي فقال رجل: إذن نكثر، قال الله أكثر).

[1] - رواه الترمذي (٣٥٧١) ط دار الكتب العلمية، بيروت، والطبراني في الكبير (١٠١٠٨) وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤٧٨/٢) : أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود ﷺ وقال: حماد بن واقد ليس بالحافظ. قلت: وضعفه ابن معين وغيره.

وفي الترمذي أيضًا عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**من لا يسأل الله يغضب عليه**»[1].

وفي حديث آخر: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها؛ حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع**»[2] يعني: بالغ فى رفع حاجتك إلى الله تعالى حتى إذا انقطع شسع نعلك -أى: السير الذي يربط به الحذاء- تسأله الله تعالى.

وقد رأينا مصداق ذلك في قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك**» وذكرنا حديث المرأة التي خرجت في سرية من سرايا المسلمين، وقد تركت عنزاتها وصيصيتها؛ فرجعت وقد فقدتها فأخذت تناشد ربها -سبحانه وتعالى- : أي ربي لقد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وأنا أناشدك عنزتي وصيصيتي، وأخذت تناشد ربها ذلك؛ فأصبحت وعندها عنزتها ومثلها، وصيصيتها ومثلها، يعني: صنارتها التي تغزل بها، كما ذكرنا من قبل[3].

وتوكل على الحي الذي لا يموت

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة؛ حتى يكون التعلق بالله تعالى لا بالمخلوقين الزائلين، فإنك تقول: غدًا سأذهب إلى فلان ليعطيني، أو أذهب إلى فلان ليتوسط لي، أو أذهب إلى فلان ليفعل كذا وكذا؛ فإذا فلان هذا قد مات، تصبح وقد انتقل إلى الله تعالى، تصبح وقد عُزل من هذه الوظيفة التي كنت تظن أن يخدمك بها.

---

[1] - رواه الترمذي (٣٣٧٣) ط دار الكتب العلمية، بيروت، والطبراني في الأوسط (٢٤٣١) والحاكم في المستدرك (١٨٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

[2] - رواه الترمذي (٣٩٧٣) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٢٨) : رواه الترمذي .. ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة.

[3] - رواه الإمام أحمد في مسنده وتفرد به (٥/٦٧) حديث (٢٠٦٨٣) أورده الهيثمي في المجمع (٥/٢٧٧) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا منهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأبو ذر، وثوبان ﷺ كان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فينزل، لا يسأل أحدًا أن يناوله إياه، لأن النبي ﷺ بايعهم على ذلك، على ألا يسألوا الناس شيئًا بتاتًا [1].

يقول: خرج ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إن بني فلان أغاروا عليّ فذهبوا بابني وإبلي؛ فقال له النبي ﷺ: إن آل محمد كذا وكذا أهل بيت، ما لهم مد من طعام أو صاع؛ فاسأل الله، عز وجل؛ هذا الحديث وإن كان في سنده مقال نقوله على سبيل الاستئناس بهذه المعاني؛ لأنها كما ذكرنا لها أصول صحيحة.

انظر لهذا المعنى: ذهب إلى النبي ﷺ هذا الرجل وقال: إن بني فلان قد أغاروا علي وذهبوا بابني وإبلي، أى: أخذوا ابنه وإبله فاستاقوهم؛ فقال له النبي ﷺ: إن آل محمد يعني: أبيات النبي ﷺ كذا وكذا بيت ما عندهم مد من طعام ولا صاع، أى: ليس عندهم شيء من طعام؛ فاذهب فاسأل الله -عز وجل- وهذه كانت من وظائف النبى ﷺ المعظمة وهى أن يدل الناس على الله تعالى، كان يمكن أن يقول له الحل، اذهب مثلاً إلى بني فلان وغر عليهم، وائت بالإبل كما يفعل الناس اليوم، يأتي فيقول: حدث كذا وكذا مع أبي ومع أمي ومع زوجتي ومع أولادي، وفلان قد أخذ مني كذا من المال، وفلان ضحك علي في كذا، وحدث بيني وبين فلان شجار، وفلان أخذ حقي، وفلان عمل في كذا، وفلان وفلان ومشاكل وقضايا ومحاكم وكذا وكذا؛ ثم يسألني

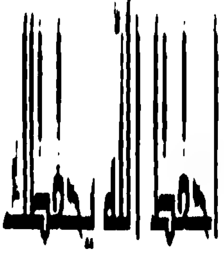
---

[1] - رواه مسلم (٢٤٤٠) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ، عن أبي إدريس الخولاني ﷺ قال : «حَدَّثني الحبيبُ الأمين - أمَّا هو فحبيبُ إليَّ، وأمَّا هو عندي فأمينٌ - عَوْفُ بن مالك الأشجَعيّ، قال : كُنَّا عند رسول الله ﷺ تسْعة، أوْ ثمانية، أوْ سَبْعة، فقال : ألا تُبَايعُونَ رسولَ الله ؟» وكُنَّا حديث عَهدٍ -ببَيْعَةٍ، فقُلْنا : قدْ بايعنَاكَ يا رسول الله، ثم قال : «ألا تبايعون رسول الله ؟ قال : فبسطنا أيدينا، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله، فَعَلامَ نُبايعُك ؟ قال : «أن تعْبُدُوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وتُصَلُّوا الصلوات الخمس، وتَسمعوا وتُطيعوا»- وأسَرَّ كَلِمَةً خفيَّةً -قال : ولا تَسألوا النَّاس شيئًا». فلقَدْ رأيتُ بعضَ أولئك النَّفَر يَسقُطُ سَوْطُ أحدِهِمْ، فما يسْألُ أحدًا يُناوِلُهُ إياه»..

ماذا أفعل؟ أقول له: ادع ربك، اذهب فأسأل الله -عز وجل-، اذهب فقف بباب الله القادر على كل شيء، طهر نفسك من الذنوب والمعاصي والسيئات، وتخل عما أنت فيه من المظالم والجنايات، ثم قف بباب الله تعالى متطهرًا، أقبل على ربك -سبحانه وتعالى- داعيًا مناجيًا، وارفع ذلك ببكائك، بحزنك وألمك، بقوة رجائك في الله تعالى؛ أنه سيجيبك -سبحانه وتعالى- ، ولن يردك خائبًا، واسأل الله وأنت تطمع في الإجابة، واسأل الله وكرر وألح ولا تقل: قد سألت فلم يستجب لي، قد دعوت فلم يستجب لي!.. ماذا صنعت؟!.. ماذا أصبت؟!.. واعلم أن كل ذلك من نفسك، ومن شيطانك، ومن سوء عملك، ومن سوء صنيعك الذي لا تعلمه، والذي قد علمته، اذهب فقل: أي ربي أريد إبلي وولدي، أريد كذا وكذا، حل مشاكلي... فإذا لم يحلها المولى -سبحانه وتعالى- فلا تنتظر حلاً من أحد.

نعود إلى الحديث الذى كنا بصدده وهو كما ذكرنا من الشواهد التى نستأنس بها؛ لأن بعض أهل العلم ذكروا أن فى سنده مقالاً، وإن كان قد حسنه بعضهم بشواهده.

فرجع إلى امرأته فقالت: ما قال لك؟ تعني: ماذا قال لك النبي ﷺ؟ فأخبرها؛ فقالت: -انظر إلى رد المرأة المؤمنة- فقالت: نِعْمَ ما ردَّ عليك، أى: ليس ثَم أفضل من ذلك يرد عليك به ﷺ. فلما ذهب إلى الله تعالى، وسأله واستغاث به، وأخرج من قلبه كل تعلّق إلا بالله، وطمع فيما عنده تعالى، واشتد رجاؤه في أن يجيبه ربه -سبحانه وتعالى-، وقدم بين يدي دعائه الافتقار والمسكنة إلى الله -سبحانه وتعالى- بعد التوبة والعمل الصالح؛ وكانت العاقبة: فما لبث أن رد الله تعالى عليه ابنه وإبله أوفر ما كان؛ فأتى النبي ﷺ فأخبره؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأمر الناس بمسألة الله -عز وجل- والرغبة إليه، وقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق : ٢-٣] ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن الله -عز وجل- في الحديث القدسي يقول: «**هل من داعٍ فأستجيب له، هل من**



سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له حتى يطلع الفجر»[1] وهذا الذي قد فرط فيه المؤمن تفريطاً كثيراً؛ وإن فعله ليلة فرط فيه ليالي.

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين، وأن سؤال الله تعالى دون كل أحد هو المطلوب اللازم الواجب عليك، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل، وإظهار المسكنة، وإظهار الحاجة، وإظهار الافتقار؛ هذه من جهة السائل.

ومن جهة المسئول فيه الاعتراف بقدرة المسئول على دفع الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة، إذ لا يقدر على كشف الضر وجلب النفع على الحقيقة إلا الله تعالى.، كما قال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾[يونس : ١٧]، وقال: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر : ٢].

وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك؛ فصنه عن المسألة لغيرك.

واعلم أيها المسكين أنك إن وصلت إلى هذه الحالة؛ كنت أغنى الأغنياء؛ لأنك غني بالله تعالى القوي القادر، فما من شيء توده وتريده إلا وقد توجهت به إلى من يستطيع ذلك، هل هناك أحد من أهل الدنيا يستطيع أن يشفيك؟!.. أو أن يعطيك؟! لا يستطيع أن يمنع عنك الضرر ولا أن يجلب لك النفع.

[1] - رواه البخاري (١١٤٥) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ومسلم (٧٥٨) ط١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. كلاهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

لذلك إذا ما تعلق المرء بربه وكان سؤاله لله تعالى وحده، وخرج عن تعلقه بالمخلوقين كان أغنى الأغنياء؛ لأنه صار غنيًّا بربه -جل وعلا- واثقًا فيما عنده، علم أن عنده -سبحانه وتعالى- خزائن لا تنفد؛ لا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه -سبحانه وتعالى- كما قال: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ** ﴾ [يونس: ١٧] -سبحانه وتعالى- ، وكما قال: ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [فاطر : ٢]، ومن الذي يستطيع أن يمسك وأن يرسل تلك الرحمة، وذلك الفضل إلا هو سبحانه وتعالى؟

ومع ذلك نحن غافلون؛ لقلة التوحيد، وضعف الإيمان في قلب المرء عن هذه الأمور التي يجب أن يكون توحيد المرء فيها خالصًا لله تعالى.

لذلك يقول: *ويستدعي من عباده سؤاله،* هو الذى يستدعي السؤال منهم، ويطلب منهم أن يسألوه ﴿ **ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ** ﴾[غافر : ٦٠]، ﴿ **وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ** ﴾[النساء : ٣٢] كما يقول -سبحانه وتعالى-؛ فهو قادر مع ذلك كله على أن يعطي خلقه كلهم من أولهم إلى آخرهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، فلو أن هؤلاء الخلق جميعًا من قبل آدم الجن والإنس اجتمعوا في صعيد واحد، وسأل كل واحد منهم مسألته لله تعالى؛ فأعطى كل واحد سؤاله ما نقص ذلك من ملكه شيئًا -سبحانه وتعالى- [١].

---

[١] - رواه مسلم (٦٧٣٧) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. ولفظه : عن أبي إدريس الخولاني -رحمه الله- عن أبي ذَرّ أنْ رسولَ الله ﷺ قال:- فيما روى عن الله تبارك وتعالى - أنه قال : «يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظَالموا، يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيْتُه، فاستَهدُوني أهْدِكم، يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعِموني أُطْعِمْكم، يا عبادي، كُلُّكم عار إلا مَنْ كَسوتُه، فاستكْسُوني أكْسُكُمْ، يا عبادي، إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعا، فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي، إنَّكم لن تبلغُوا ضَرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم، كانوا على أتْقَى قلب رجل واحدِ

والمخلوق بخلاف ذلك كله، فلا يقدر أن يقول: تعال اسألني وخذ وأنا سأعطيك، وتعال في أي وقت والفلوس تحت أمرك، ولو قال لك مرة إن قال! فهي مجاملة، ولو ذهبت مرة ثانية يقول لك: لو كان حبيبك عسلاً فلا تأكله كله. يا إلهي!..

يقول: *والمخلوق على خلاف ذلك كله يكره أن يُسأل، ويحب ألا يُسأل؛ لعجزه وفقره وحاجته؛ لهذا قال وهب ابن منبه[1] لرجل كان يأتي الملوك يدخل عليهم؛ لينال شيئًا من ورائهم: ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه! وتدع من يفتح لك بابه لنصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]؟.*

وكذلك قال طاوس[2] لعطاء[1]: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، ويجعل دونك حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك سبحانه وتعالى.

منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئا، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، [كانوا] على أفجرِ قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، مانقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ، يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم،ثم أُوفِّيكم إيَّاها، فمن وَجَدَ خيرا فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ».

[1] – وهب بن منبه رحمه الله تعالى؛ ابن كامل بن سيج بن ذى كبار، الإمام العلامة الأخبارى القصصى، ولد فى زمن عثمان رضى الله عنه. قال عنه العجلى: تابعى ثقة، كان على قضاء صنعاء. وقال أبو زرعة والنسائى: ثقة. ومن أقواله رحمه الله تعالى: احفظوا عنى ثلاثاً: إياكم وهوىً مُتَّبع، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه. للاستزادة من أخباره رحمه الله تعالى: انظر الذهبى (٢٩٣/٤)، والبخارى (١٦٤/٨)، وابن حجر فى لسان الميزان (٤٢٨/٧).

[2] – طاووس بن كيسان رضى الله عنه؛ اسمه ذكوان وكنيته أبو عبد الرحمن، ولقب بطاووس الفقهاء لسعة علمه وغوصه على الدقائق. أدرك خمسين من أصحاب النبى ﷺ وتخرج بهم. قال عنه عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً قط مثل طاووس بن كيسان. وقال مجاهد: رأيتك يا أبا عبد الرحمن فى الحلم وأنت تصلى فى الكعبة والنبى ﷺ على بابها وهو يقول لك: اكشف قناعك وبين قراءتك يا طاووس. للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى فى تاريخ الإسلام (١٢٦/٤) وابن حجر (١٠١/٢) أبى نعيم فى الحلية (٣/٤).

فينبغي على أهل الإيمان في مسألة الدعاء أن يجعلوا هذا الكلام نصب أعينهم... حتى يتعلقوا بربهم جل وعلا، فيتركوا التعلق بالمخلوقين، ويقفوا بباب الله تعالى المفتوح، ولا يقفوا بهذه الأبواب المغلقة دونهم فيفضي بهم ذلك إلى توحيد ربهم التوحيد الحق، ومحبته -سبحانه وتعالى-، وإلى أن تكون أسئلتهم وحوائجهم وطلباتهم كلها لله -جل وعلا-، وحينئذ يكونون الأقرب إلى ربهم، والأحب إليه، والأجدر بإجابته لهم، وبعطائه إياهم يفرج كربهم، ويرفع عنهم بأسه -سبحانه وتعالى-، ويشفي أمراضهم، ويغني فقيرهم، ويتحنن -جل وعلا- إليهم، ويتلطف بهم سبحانه وتعالى.

العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره

وأما الاستعانة فى قوله ﷺ: **«وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»** فلا تكون إلا بالله عز وجل لماذا؟

لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، إذ لا يستطيع أن يكون هو القائم بهذه المسائل وحده، فيجلب مصالح نفسه، ويدفع عنها الضر، فلو كان ذلك كذلك لم نر واحدًا محتاجًا فى هذه الدنيا، ولا مضطرًّا، ولا فقيرًا، ولكن الله تعالى خلق الإنسان محتاجًا فقيرًا؛ حتى يعلم أن له ربًّا غنيًا قادرًا -سبحانه وتعالى-؛ لذلك يقول: *فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له، لا يستطيع أحد أن يعينه، وليس هناك*

[1] - عطاء بن أبى رباح رضى الله عنه؛ الإمام العلم العلامة مفتى الناس بحرم الله عز وجل... كان من الحبشة ومن موالى قريش... جد واجتهد فى طلب العلم وكان المسجد الحرام فراشه نحواً من عشرين عاماً... وهو حسنة من حسنات عبد الله بن عباس رضى الله عنهما. قال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحداً يريد بالعلم وجه الله عز وجل غير هؤلاء الثلاثة: عطاء... وطاووس... ومجاهد... رحمهم الله تعالى ورضى عنهم. للاستزادة من أخباره رحمه الله تعالى: انظر الذهبى فى الميزان (١٩٧/٢) وتذكرة الحفاظ (٩٢/١) وابن حجر (١٩٩/٧) وابن خلكان فى وفيات الأعيان (٢٦١/٣).

معين على الإطلاق على مصالح دينه ودنياه إلا الله -عز وجل-؛ قد ترى من يقيم لك مصالح دنياك، ولكنه لا يقيمها لك كلها، ولا يقيمها لك على المحبة، وقد يقيمها لك على المصلحة، أو ليتخلص من إلحاحك، أما الله -جل وعلا- فيقضيها على التعرف لعباده أن يستعينوا به، وعلى أن تكون هذه النعم معرِّفة لهم بربهم، آخذِة بقلوبهم وجوارحهم إليه -سبحانه وتعالى- على معنى التحبب إليهم ليعبدوه، وليطيعوه، وليحصلوا أسباب رضوانه في الأولى والآخرة -سبحانه وتعالى- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى على عدم الملل، إذ أن الله تعالى لا يمل من سؤال أحد، ولا يضجر كفعل المخلوق الذى يمل ويضجر ويتألم ويتأوه ويظهر افتقاره؛ ومرة يعطي ومرة لا يعطي، وهكذا ولعلك أن تكثر عليه مرة؛ فيقاطعك إلى الأبد، ويغلق هذا الباب حتى يستريح كما يقال.

لا يستعصي على الله شيء ولا يعجزه شيء

الله رب العالمين كريم جواد، ويد الله -سبحانه وتعالى- سحّاء الليل والنهار، انظر كم أنفق -سبحانه وتعالى- على عباده منذ خلق السموات والأرض -جل وعلا-[1]، وإن استطاع أحد أن يعطيك في الدنيا فمن الذي يستطيع أن يحول قلبك على دين الله تعالى؟ ومن الذي يُقَوِّم نفسك، ويأخذ بجوارحك إلى طاعته؟ وإلى محبته، وإلى التعرف إليه، وإلى دوام ذكره، وإلى الخوف منه، ومراقبته، وإلى الرجاء فيه -سبحانه وتعالى-، إن استطاع أحد أن يفيدك في الدنيا، لا يستطيع أن يفيدك في تحويل قلبك إلى الآخرة، إن استطاع أن يعظك موعظة، لم يستطع تحويل

---

[1] - رواه البخاري (٦٩٧٦) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ومسلم (٢٣٥٦) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. ولفظه : عن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَمِينُ اللَّهِ مَلأَى لاَ يَغِيضُهَا سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِى يَمِينِهِ ». قَالَ « وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْقَبْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ ».

قلبك من المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن البعد إلى الإنابة، ومن التفريط إلى كمال الاستعداد للقاء الله تعالى، وإلى الطمأنينة بذكره، وإلى المحبة، وإلى استنارة القلب بتوحيده والإيمان به، إلى الأنس به والشوق إلى لقائه، إلى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، إلى المسارعة إلى الخيرات، إلى رفع الكسل والتواني، وما أنت فيه إلى أن يتوب عليك، إلى أن يغفر لك ذنبك، من الذي يستطيع ذلك كله؟ ليس إلا الله تعالى؛ لذلك لزم أن تستعين به.

وكم من أناس -وهذه كثيرة- يأتيني وهو يائس من أمور كثيرة أبواب كثيرة من الدنيا، الموضوع الفلاني يائس منه وأقول له: قف بباب الله تعالى، قف وادع ربك، توسل بالقرآن، توسل بالأعمال الصالحة، **قصة غريبة** قال أحدهم لى منذ فترة: غير معقول أنا لى ست عشرة سنة في هذا الموضوع، ولا يوجد أمل، وانتهينا، أنت تتعب معي بلا فائدة، وبعد مدة جاء يقول لي: أبشرك أتصدق أن كل الكلام الذي كنت تقوله لي حصل! قلت له: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا يستعصي على الله تعالى شيء. وهذه المسألة من المسائل التى لابد أن تحفظها وهى أنه لا يستعصي على الله تعالى شيء، ولا يكبر عليه تعالى شيء، الله أكبر وأجلّ وأعظم -سبحانه وتعالى- وأغنى وأقدر وبيده ملكوت كل شيء، وإذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون.

وقد ذكرنا أن أشياء لم يكن يتخيل المرء أن تحدث وقد حدثت، يعني: ألم تستغرب يومًا مثلاً أن فلانًا هذا الشخص، هذا الذي تعرفه الذى لا يمكن أبدًا أن يصلي، أو أن يطلق لحيته ألم يحدث ذلك؟ ولم تتوقع مثل ذلك أنت في نفسك يومًا ما، يقول لك: ياللعجب تصدق فلان هذا أصبح يصلي! سبحان مقلب القلوب، سبحان الهادي، انظر إلى فلان كان كذا ثم أصبح كذا، أو انظر إلى الدنيا وتقلباتها هل تذكر فلانًا كان عنده وعنده وهو الآن مسكين لا يجد ما يأكله، ويسأل ومحتاج، أليس كذلك؟ وفلان الذي كان مريضًا ولا يرجى برؤه الآن يمشى على رجليه، وربنا عافاه وشفاه.

هذه الأمور لا تحتاج أن تُذْكر وكل أحد قد صادف مثل ذلك، ورآه بعينه، فينبغي أن يزداد بذلك يقينًا في ربه -سبحانه وتعالى- ، و توكلاً على الله تعالى وركونًا إليه -سبحانه وتعالى-، وأن يتعلم كيف يستعين بالله -جل وعلا- وأنه -سبحانه وتعالى- لا يعظم عليه شيء.

لا معين على مصالح الدنيا والآخرة إلا الله

وكل شيء لا تتخيل وقوعه استعن عليه بالله -سبحانه وتعالى-، وأنك إن استعنت بالله تعالى فقد استعنت بالعظيم القادر خالق كل شيء، العلى الكبير. وغيره ﷺ مخلوق حقير صغير لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

لذلك قال: *ولا معين على مصالح الدنيا والآخرة إلا هو -سبحانه وتعالى-؛ فمن أعانه المولى -جل وعلا- فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول*، فلا يُصلحه شيء، ولا يعينه أحد، ولو اجتمعت الدنيا على نفعه لم تستطع إلى ذلك سبيلاً؛ لذلك يقول: *وهذا تحقيق معنى قوله ﷺ:* ***«لا حول ولا قوة إلا بالله»*** معناه: أنه لا تحوُّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، لذلك كانت هذه الكلمة كلمة عظيمة، ويقول النبي ﷺ فيها: **«كنز من كنوز الجنة»** [1].

وانظر إلى احتياج العبد إلى الاستعانة بالله تعالى في فعل المأمورات، التي أمر بها الله تعالى، وكذلك في ترك المحظورات، وفي الصبر على ما ينزل به من الشدائد والابتلاءات، والأهم من ذلك احتياجه إلى الله -تبارك وتعالى- عند موته وبعده في هذه الأهوال والكربات...

---

[1] - رواه البخاري (٦٩٥٢) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، ومسلم (٧٠٣٧) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. ولفظه: عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى سَفَرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ ». قَالَ وَأَنَا خَلْفَهُ وَأَنَا أَقُولُ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ فَقَالَ : «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ »؟ فَقُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « **قُلْ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ».

من الذي يعينك على فعل أوامر الشرع؟ ويدفع عنك كسلك ونفسك؟ انظر إليك إذا لم تستعن بالله تعالى لم تستطع أن تقوم إلى صلاة، ولا إلى ذكر، ولا إلى قرآن، وتنوي الصيام وتصبح مفطرًا، وتنوي القيام وتنام إلى الفجر، بل لن ينجيك من المعصية، ويبعد عنك الكبيرة، ويجنبك هذه الآفات، وهذه المرديات المهلكات إلا الله، تبارك وتعالى.

انظر لنفسك عندما تغفل عن الاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه والارتكان إليه؛ تقع في النظر المحرم والكلام المحرم، والغيبة والنميمة والسخرية، وكل المصائب والعبر..

فلا يستطيع المرء أن يمسك قلبه ولا نفسه ولا لسانه ولا جوارحه، إلا بعصمة الله تعالى له، ومعونته إياه؛

فانظر إلينا كم نحن محتاجون مفتقرون لتحقيق معانى غنى القلب، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستعانة بالله تعالى.

وفى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»** [1] مهما وجدت نفسك ضعيفة، وأنت مشتّت الخاطر والذهن والقلب في أمور الدنيا والبدن والمال والولد، ولا تستطيع وقد عجزت عن أن تقوم بأمور دينك ودنياك وولدك، وحدث لك هذا الانهزام النفسي الذي يحدث للناس؛ استعن بالله ولا تعجز، واعلم أنه متى استعنت به أعانك، ومتى استعنت بغيره خذلك، فصرت مخذولاً؛ لأنك قد تُخذَل من الباب الذي تظن أنك مُعَان فيه؛ حتى لو ظننت أنك مرتكن إلى طاعة من الطاعات، وستوفَّق من هذه الجهة، وركنت إليها؛

[1] - رواه مسلم (٦٩٤٥) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ.ولفظه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

خُذِلْت منها؛ وكذلك إن استعنت بشيء غيره -جل وعلا- وكلك إليه، فمن استعان بالمال فالمال لا ينفعه، ينتهي المال وإذا به فقير محتاج يتكفف الناس، من استعان بالجاه يصبح لا جاه له، فيبدو له من الناس الجفاء...ألم تر أحدًا كذلك، أصبح لا يعيره أحد اهتمامًا ولا حتى يرد عليه السلام؟ صار مسكينًا فقيرًا يمشي على رجليه كبقية الخلق، لا يلتفت إليه أحد؛ لذلك قال تعالى: ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٣]، وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨]، وهذا معنى جميل من المعاني التي ينبغي أن يتعلم المرء فيها الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨]، وكان يمكن أن يقول: وتوكل على الحي -سبحانه وتعالى-، وإنما أكدها بقوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨] لماذا؟ لأنك يمكنك أن تتوكل على الحي، فتذهب إليه مع معرفتك أنه ملك أو سلطان أو صاحب جاه ومنصب و مال وأن طرقه سالكة ويستطيع أن يعينك فذهبت له يوماً فقال: تعال غدًا، فعدت من الغد فوجدته ميتاً، لذا ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨] -سبحانه وتعالى- الباقي القائم على كل نفس بما كسبت، القيوم، سبحانه وتعالى... فهو القادر على قضاء حاجاتك ليس فى غد فقط بل فى حياتك كلها إلى أن تعود إليه...

من علامات التوفيق: الاستعانة بالله والثقة به والتوكل عليه

وهناك مسألة ثانية تدخل في مشاكل المؤمنين، قد يظن المرء نفسه متوكلاً على الله تعالى، وهو متوكل على نفسه، وليس متوكلاً على الله تعالى، وراكن إلى نفسه، يتخيل ذلك وأنه صار ذا قيمة وله فخامة، أو وجاهة عند الله تعالى؛ فإذا به لا شيء له من ذلك كله، وارتكن إلى نفسه فوكله الله تعالى إليها.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ: لا تستعن بغير الله؛ فيكلك الله إليه، وإذا ما وُكِلْت لغير الله وُكِلْت للزائل الفقير الميت، الذي لا يستطيع لنفسه دفعًا للضر، وإن استطاع ذلك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت؛ ﴿ **وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا** ﴾ [الفرقان : ٣].

ومن كلام بعض السلف: يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك؟ من يعرف الله تعالى، ويعرف قوته وقدرته وغناه وفضله، ويعرف كرمه وجوده وإحسانه وبره، عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك؟

قوله ﷺ:«**جف القلم بما هو كائن**» أو«**رفعت الأقلام، وجفت الصحف**» وهو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، وإن الكتاب إذا فرغ من كتابته، وطال عهده؛ فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كُتب من مدادها، وجفت الصحيفة التي كتب فيها المداد.

وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ومعناه: أن مقادير الخلق كلها قد فُرغ من كتابتها عند الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد : ٢٢].

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[1]، وفيه كذلك عن جابر أن رجلاً قال يا رسول الله: فيم العمل اليوم؟ أفيم جفت به الأقلام، وجرت به المقادير؟

---

[1] - رواه مسلم (٦٩١٩) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. ولفظه : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

أم فيم يستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل؟ قال: **اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**[1].

وخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: **«إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب؛ فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**[2]، ومعنى هذا: أن الله تعالى كتب المقادير التي ستجري على خلقه إلى يوم القيامة؛ فهي مدونة عنده -سبحانه وتعالى- في اللوح المحفوظ، وكل ذلك مكتوب عند الله تعالى.

فإن قيل: إن كان كل شيء مكتوبًا فلماذا نتعبد؟ نقول: المرء لا يعرف المكتوب عليه.

ثانيًا: هذه الكتابة المغيبة لست مطالبًا بشيء فيها إلا أن تؤمن بها، إنما المُطالَب به أن تأتمر بالأوامر التي أمرك الله تعالى بها، وأن تنتهي عن النواهي التي نهاك الله تعالى عنها، وقد أقدرك على ذلك، أقدرك على أن تأتي بالأوامر، وأقدرك على أن تنتهي عن النواهي.

وهذا هو القدر السابق، وهو أحد أنواع القدر، لأنه لا يجوز على الله تعالى ألا يعلم ما سيقع في خلقه، وهذا اسمه العلم السابق لله تعالى وهو أن كل شيء سيحدث في خلقه -سبحانه وتعالى- كُتب عنده قبل أن يقع.

فإن قيل: (لماذا نطيع ونعمل؟) نقول: هذا أمر آخر، الذي سيحدث وسيجري منك في اتباع أوامر الله تعالى قد كتبه الله تعالى، وهو -سبحانه وتعالى- بعد ذلك أمرك بفعل كذا وكذا

---

[1] - رواه مسلم (٦٩٠٣) ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ. ولفظه : عَنْ عَلِىٍّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِى يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ « مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلاَّ وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ أَفَلاَ نَتَّكِلُ قَالَ: « لاَ. اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ». ثُمَّ قَرَأَ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) إِلَى قَوْلِهِ (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى).

[2] - رواه أبو داود (٤٧٠٢) ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ ، والترمذي (٣٣١٩) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال: حديث حسن.

ونهاك عن فعل كذا وكذا؛ فلما لم تأتمر ولم تنته... عاقبك... لماذا؟ لأنك تستطيع أن تفعل ولم تفعل، وتستطيع أن تنتهي ولم تنته، أليس كذلك؟!.. فالعمل متعلق بالأمر والنهي، الأمر أنك تستطيع أن تصلي وأن تأتمر بأوامر الله، وتستطيع ألا تأتمر وقد أقدرك الله تعالى على ذلك، أقدرك على أن تصلي، وأقدرك على أن تترك الصلاة، ولكن كلفك بالصلاة، ونهاك عن تركها، وتستطيع أن تأتمر وألا تأتمر؛ لذلك لا يظلم ربك أحدًا.

فالمكتوب شيء، وهو علم الله تعالى السابق؛ لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا ما كان ولا ما يكون، كل ذلك في علمه -سبحانه وتعالى- قد كتب عنده -سبحانه وتعالى-.

فإن قيل هل الإنسان مجبر على ما يعمل؟!.. قلنا: لا ليس مجبراً، بدليل أنك لست مجبرًا أن تضرب من أمامك.

إذن فُهِمَتْ المسألة، وهى أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء عنده قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وهذا علم الله تعالى السابق. أما الأوامر والنواهي فقد أمر الله تعالى بها، ونهى عنها، وأقدر الناس على امتثال الأوامر واجتناب النواهى؛ وله -سبحانه وتعالى- في ذلك الحكمة البالغة، وله الحجة الكاملة -سبحانه وتعالى- على كل أحد، وفي النهاية ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] فإن قيل: فما العمل؟.. نقول: اعمل على نجاتك في الدنيا باتباع أوامره، والانتهاء عن نواهيه، واعلم بعد ذلك أنه لن يظلمك شيئًا سبحانه وتعالى... وأن كل شيء مخلوق له سبحانه.

الأمور تجري بمقادير

قوله ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء**» الشيخ ذكر هنا الرواية الثانية وهي قوله: «**فلو أن الخلق جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه**».

واعلم أن المقصود الأصلي من الحديث المشرف هو قوله ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**».

يقول: *والمراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه؛ فكله مقدر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من ذلك في الكتاب السابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعًا* يعني: ما يصيب المرء في دنياه من مصلحة، أو مفسدة، من منفعة أو مضرة، إنما يصيبه ما كتب له في الكتاب السابق لا يخرج عنه، ولو اجتهد الخلق كلهم أجمعون في أن يغيروا شيئًا من ذلك ما استطاعوا، وقد دل القرآن على مثل هذا في قوله -عز وجل-: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** ﴾[التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ** ﴾[الحديد: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ﴾[آل عمران: ١٥٤] هذه في غزوة أحد، القصة المشهورة لما انقلبت الكفة أو الدفة على المسلمين في الموقعة، وأساء المنافقون الظن بربهم وقالوا: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا فرد ربنا جل وعلا عليهم، فقال لهم: ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ** ﴾ أي: لخرج ﴿ **ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ﴾[آل عمران: ١٥٤] أي: إلى الأماكن التي يضطجعون فيها للموت؛ لخرج كل منهم إلى أُحد؛ حيث كتب عليه أن يقتل ليقتل ﴿ **لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** ﴾[آل عمران: ١٥٤].

حقيقة الإيمان

وهذه المسألة متعلقة بحقيقة الإيمان، خرج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «**إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**» [1] فلكل شيء حقيقة، ولا يصل العبد إلى حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فيستريح قلبه، وهذه مسألة مهمة، وهي سبب أنكاد الدنيا التي نحن فيها، وسبب التسخط والاعتراض على قدر الله تعالى، وسبب إرادة أن يكون غير ما أراد الله -سبحانه وتعالى-، وسبب كل العلل والأمراض سواء في آفات القلب والنفس، أو في أمراض البدن العضوية، كالضغط والسكر وغيرها إذ تأتي بسبب هذه المسائل، وإذا حدث له الحادث، أو وقعت به المصيبة، أو حدث له ما لم يكن في حسبانه؛ ظل معترضًا متسخطًا متألمًا لا يصبر على ما حدث له، ولا يؤمن بقدر الله تعالى وقضائه، ولا يرضى بما نزل من عند الله -سبحانه وتعالى-، ولا يتخيل أن هذا الأمر ما كان ليخطئه، وأن هذا الأمر ما كان إلا ليصيبه، وإذا به يمرض أمراضاً كثيرة سواء كانت فى بدنه أو فى قلبه؛ وسبب هذه الأمراض عدم الإيمان بقدر الله تعالى، وعدم الرضا وقلة الصبر على أقدار الله -سبحانه وتعالى-، والتشكك في هذه النوازل من أقدار الله -جل وعلا-، وأنه يريد ألا تكون على هذا النحو، أو أن يؤخرها فلا تقع في هذه الأيام، أو أن يعكسها فلا تكون بمثل هذه الحال. ويقول لك: هذا ما كان ينقصنا؛ زيادة المصائب؛ لو كان كذا لكان كذا ولو ولو.... كأنه يريد أن يتحكم فيما يجري في قدر الله تعالى، وما يترتب في كونه على وفق هواه ومزاجه ورؤيته

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٥٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢١٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٢١): إسناده حسن.

ومصلحته ومنفعته أو مضرته. ووجهة نظره القاصرة التي يراها، لذلك كان من أصول الإيمان السكون إلى المقدور والعلم بأن أقدار الله تعالى هى أحسن المقادير...

يعلم المرء إذن أن ما يصلحه ويناسبه هو مقادير الله تعالى... ولكن لا تَبَصُّرَ له بالعواقب ولا نظر فيما ينفعه أو يضره..

توحيد الله خلاص من الرق

لذلك قال: واعلم أن مدار هذه الوصية: «**واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن الدنيا لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**» على هذا الأصل، وهو قوله ﷺ «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**» فالعبد إذا علم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر، ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة؛ علم حينئذ أن الله وحده هو النافع الضار، وأنه هو المعطي المانع؛ فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه -عز وجل-، وإفراده بالطاعة، وحفظه سبحانه وتعالى.

فعندما عرف العبد أن الأمة لو اجتمعت كلها على خلاف المقدور الذي قدره الله لم يكن ذلك مفيدًا، وعلم أنه هو -سبحانه وتعالى- منه كل شيء، وأن مرجع كل شيء إليه، وبيده كل شيء؛ وأن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع... أوجب ذلك للعبد السكون للمقدور وراحة النفس إليه، وأن الانشغال بالاعتراض والتألم غير مفيد، فانشغل بما خلق له لتنقلب المحبة فى حقه منحاً وعطايا من الله تعالى.. فينشغل بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالطاعة، وأن يحفظ حدوده وحقوقه، وأن يأتمر بأوامره وأن ينتهي عن نواهيه، فتفرغ قلبه له، وأقبل قلبه عليه، عالمًا أنه ليس ثم شيء يمكن أن يضره أو يفيده ولو اجتمع الخلق عليه أجمعون، وأنه لو حاول أن يحصل كل شيء لم يحصل إلا ما كتب الله، أو أن ينفي عن نفسه أي شيء لا ينفي إلا ما قد نفاه الله -تبارك وتعالى- عنه حينئذ استقام على أمر الله تعالى وطاعته غير مبالٍ بغيره سبحانه وتعالى.

لذلك يقول: فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار؛ ولهذا ذم الله تعالى من يعبد مَن لا ينفع ولا يضر، ومن علم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله تعالى أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء؛ فخرج من قلبه الخوف من أي شيء والرجاء في أي شيء إلا في ربه -سبحانه وتعالى-، والمحبة له -سبحانه وتعالى-، والسؤال إياه، والتضرع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه -سبحانه وتعالى- ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا، فلو سخط عليه الخلق جميعًا ما نفعوه شيئًا ولا ضروه شيئًا، وهذا معنى التوحيد الصرف الذي ينبغي أن يكون عليه كل أحد، وأوجب له ذلك إفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له في الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعه من دونه -سبحانه وتعالى- ﴿ **قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ** ﴾ [الزمر : ٣٨] هو الكافي -سبحانه وتعالى- ﴿ **قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٨]، والآية مختومة هذا الختام الجميل ﴿ **حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٨] فلا يصلح أن تختم بغير هذا؛.... لماذا؟ لأن المتوكلون[1] فقط هم الذين فهموا هذا المعنى، أنه لو أراده أحد بالرحمة لا يستطيع، أو بضر لا يستطيع إلا أن يشاء الله تعالى؛ فخرج عن توكله على البشر إلى توكله بالله تعالى، وإلى التوكل عليه، وثقته فيه -سبحانه وتعالى- ﴿ **قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٨].

---

[1] ــ اسم "أن" هو ضمير الشأن.

في الصبر على ما تكره خير كثير

ثم يقول ﷺ: «**واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**»[1]، يعني: أن ما أصاب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها كان له في هذا الصبر خير كثير، وفي رواية أخرى من روايات الحديث، زيادة أخرى قبل هذا الكلام وهي: «**فإن استطعت أن تعمل لله تعالى بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**».

ومعنى هذا الكلام أن حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يعين العبد على أن ترضى نفسه بما أصابه، فمن استطاع أن يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرضا بالمقدور فليفعل، فإن لم يستطع الرضا فإن في الصبر على المكروه خيرًا كثيرًا، ومعنى هذا الكلام الذي ينبغي أن يفهمه أهل الإيمان أنه لا يخلو أحد من أن تحل به مصائب من مصائب الدنيا، لا شك.... في ماله، في نفسه، في ولده، وفي أهله، في عمله، في غير ذلك مما يمكن أن ينزل به، وللمرء طريقان فى هذه المصائب:

الطريق الأول: وهو الدرجة العالية، درجة الرضا بما ينزل عليه.

والطريق الثاني: درجة الصبر.

ولا يجوز للمرء أن يخرج عن هذين الطريقين، فلا يخرج إلى التسخط على المقدور والتألم والشكوى لغير الله -تبارك وتعالى-، وإظهار التبرم وأنه لو كان كذا كان كذا، أو لو كان هذا الأمر تأخر قليلاً، كل المصائب تأتي مرة واحدة هكذا.... كل هذه الكلمات التي تصدر من المرء عند نزول المصائب عليه فإذا نزلت لا بد ألا يخرج عن هذين المقامين:

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٠٠)، وقال ابن تيمية في التوسل والوسيلة (٥٢): معروف مشهور، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٣٢٧/١) وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٨٨): حسن وله شواهد، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٥٩/١): حسن جيد.

الأول: مقام الرضا.

والثاني: مقام الصبر، لا يخرج عن ذلك، لا يريد أن يمشي الكون وأن يرتبه على ما يرى هو، وما يحب هو، وما يكون على هواه وفهمه هو، فإن ما نزل به إنما نزل به لحكمة بالغة من الله -تبارك وتعالى-، وقد ذكرنا في شرح حديث (**أن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة؛ حتى ييسر له؛ فينظر الله تعالى إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار؛ فيصرفه الله تعالى عنه فيظل المرء يتطير متشائمًا حزينًا يعني يقول: سبقني فلان دهاني فلان وما هو إلا فضل الله، عز وجل**) [1]، أو يكون له في سفره شيء، ثم يصرف الله -تبارك وتعالى- عنه، أو ينزل عليه المرض، أو يصح فلانًا ويمرض فلانًا، كل ذلك يكون بقضائه -سبحانه وتعالى- الذي فيه المصلحة، والذي تشمله الحكمة، فإنه يصرف عنه ذلك لعلمه أنه لو أعطاه إياه فسد، ويعطيه ذلك لعلمه لو أنه منعه إياه فسد، يمرضه لعلمه أنه لو شفاه سيحدث له كذا وكذا أصعب منه، أو يفقره يعلم أنه لو أغناه لطغى وفسد، أو يغنيه يعلم أن في غناه مصلحته وقربه من الله -تبارك وتعالى-.

فوجهه إلى أعمال الخير، التي تُنزل بَرْد اليقين على قلب المرء، وأن تصريف الكون وترتيبه إنما مرجعه ومرده إلى الله تعالى، يصلح به عباده -سبحانه وتعالى- لحكمة بالغة ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون : ٧١] لو أراد كل أحد أن يمشي الكون على مزاجه، وأن يسير وفق رؤيته القاصرة العاجزة وترتيبه لفسد، تراه - وهو مريض - متألمًا، وتراه - وهو صحيح - متألمًا، وتراه - وهو مفتقر - متألمًا، وتراه وقد منع كذا منه متألمًا،

---

[1] - أخرج هذا الأثر عن ابن مسعود: أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧٧/٨)، وقال غريب، والذهبي في العلو (٨٠) وقال: إسناده قوي، وقال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٤٣٦): إسناده صحيح أخرجه الخطيب (١٤/٦) وأخرجه أيضًا : ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٤/١، رقم ٢٦) وقال : لا يصح، والديلمى (٢٥٠/٥، رقم ٨٠٩٨) .

إن جاء ما يفيد هواه وما جاء على مزاجه تراه مسرورًا منشرحًا فرحًا بما حدث له، والأصل كما ذكرنا فيما ينزل بالمؤمن من العقوبات، أو من الآلام، أو فيما يحل عليه من الأوجاع والمصائب له فيه درجتان -كما يقول الشيخ-: فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب:

إحداهما: أن يرضى بذلك، تنزل عليه المصيبة؛ فيرضى بها.... لماذا؟ لأنها فعل الله تعالى، وترتيبه وهو يعلم أن الله تعالى أرحم به من نفسه، وأنه لو وكله إلى نفسه فسد وهلك، ويعلم كذلك أن في هذه المصيبة التي قد أتته من الله تعالى الحكمة البالغة التي لا يستطيع هو أن يصل إليها، أو أن يصل إلى شيء منها، ويعلم كذلك أن فيما نزل عليه من المصائب كان يمكن أن يكون أشد وأصعب، أليس كذلك؟ فهنا ينزل عليه الرضا، وبرد اليقين. وهي الدرجة الأولى.

جنة الرضا

وهذه درجة عالية رفيعة جدًا ليست درجة من الدرجات التي يتخيل المرء أن يصل إليها بسهولة، بل هي درجة من الدرجات العالية العزيزة التي ينبغي على كل أحد أن يحاول أن يكون على مثلها، وأن يحمل نفسه وأن يكافحها على انشراح صدره، ورضا قلبه بقضاء ربه -سبحانه وتعالى-، وأنه ما يقضي شيئًا إلا هو خير للمؤمن كما جاء في الحديث[1].

قال الله -عز وجل-: ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ** ﴾ [التغابن: ١١] ما تنزل من مصيبة إلا بإذنه ﴿ **وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ** ﴾ [التغابن: ١١].

---

[1] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٢٩٨) ابن حبان في صحيحه (٧٢٨) وقال الشيخ شعيب الأرناؤط: إسناده جيد، ولفظه عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: (عجبت للمؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له).

قال علقمة[1]: هي المصيبة تصيب الرجل؛ فيعلم أنها من عند الله تعالى؛ فيسلم لها ويرضى.

ومن ذلك ما خرجه الترمذي من حديث أنس، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[2]، وكان النبي ﷺ يطلب هذه الدرجة العالية؛ تعليمًا لأهل الإيمان أن يطلبوها وأن يجاهدوا أنفسهم على تحصيلها، يقول رسول الله ﷺ: «**وأسألك الرضا بعد القضاء**»[3]، يسأله الرضا، أى: يسأله هذه الدرجة العالية.

ومما يدعو المؤمن إلى الرضا بالقضاء تحقيق إيمانه بمعنى قول النبي ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له**»[4]، وقال ﷺ «**... إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[5]؛ لذلك علم المرء هذه الدرجة العالية الرفيعة كيف يرضى عن الله تعالى، ويرضى عن قضائه، ويعلم أن قضاءه خير له في كل حاله، وأنه لو قضى لنفسه ما استطاع أن يقضي لنفسه بهذا القضاء الجميل من الله -تبارك وتعالى-، وأن يعلم أن الله تعالى أرحم وأرأف به من نفسه -سبحانه وتعالى-، وأنه إذا قضى له ذلك القضاء إنما يريد أن يصلحه ليرفع درجته، ويقربه منه، ويشرح صدره لتحقيق اليقين

---

[1] - علقمة رضى الله تعالى عنه؛ أبو شبل ابن قيس بن عبد الله بن مالك بن علقمة بن سلامان بن كهيل بن بكر بن عوف بن المنتشر بن النَّخَع النخعى. فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها الحافظ المُجَوِّد المجتهد الكبير، عم الإمام القدوة الأسود بن يزيد، وخال فقيه العراق شيخ الإسلام: إبراهيم النخعى. حدث عن عمر وعثمان وعلى وغيرهم، ولازم ابن مسعود حتى رأس فى العلم والعمل فهو من حسناته. وتفقه به أئمة كالنخعى والشعبى، وكان يفتى والصحابة متوافرون. قال عنه أحمد: ثقة من أهل الخير. للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى (٤/٢٨)، والبخارى (٧/٤١)، وابن أبى حاتم (٦/٤٠٤)، وابن حجر (٧/٢٤٤).

[2] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٦٨٣)، والترمذي (٢٣٩٦) ط دار الكتب العلمية، بيروت، وقال : حديث حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١١): رواه أحمد ورجاله ثقات.

[3] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢١٧١٠) وابن حبان في صحيحه (٥/٣٠٤) والحاكم في المستدرك (١٩٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[4] - رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٢٩٨) ابن حبان في صحيحه (٧٢٨) وقال الشيخ شعيب الأرناؤط: إسناده جيد.

[5] - رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ﷺ ط ١، عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ.

والرضا في الله تعالى؛ وليخفف عنه بلاء أشد من ذلك، أو ليرفع عنه مصيبة أعظم من ذلك؛ ليرى عبده متضرعًا إليه، رافعًا أكف الدعاء له -سبحانه وتعالى-، متقربًا إليه بأنواع القرب ليرفع عنه.

جنة الدنيا في الرضا عن الله

قال أبو الدرداء ﷺ: إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يُرضى به، أى: إن الله تعالى يحب أن يرضى المؤمن بقضاء الله تعالى لا أن يتسخطه، ولا أن يعترض عليه؛ لأنه اعتراض على الحكمة، واعتراض على الفعل الجميل من الله تعالى، واعتراض على مصلحتك التي رأى المولى -سبحانه وتعالى- فيها ما يصلحك، ورأى فيها كذلك عاقبتك الحسنى التي لا تستطيع أنت ولا الدنيا أن تدبرها لك، ولا أن تحققها لك، وأن أهل الدنيا لو اجتمعوا -كما ذكرنا- على أن ينفعوك بشيء لم يستطيعوا، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يستطيعوا؛ لذلك قال ابن مسعود ﷺ: **(إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)**[1].

الراحة في الرضا والهمّ في الشك

فعلمنا إذن أن الله تعالى جعل بقسطه وعدله، الروح أى: الراحة، في اليقين فيما عند الله تعالى، وفي الثقة فيما قدره الله -تبارك وتعالى- وقضاه باليقين يعني: في أن يكون المرء واثقًا من

---

[1] - أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٥٠٤/١، رقم ١٤٣٨)، وابن أبي شيبة (١٠٥/٧، رقم٣٤٥٤٠)، وهناد فى الزهد (٥٤٣/٢، رقم ١١٢٣) ولفظه: - -(عن ابن مسعود قال : اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله، ولا تحمد أحدًا على رزقِ الله، ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله؛ فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره، وإن الله بقسطه وعلمه وحكمته جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط).

حسن تصريف الله له كل الثقة لا يتردد في ذلك أبدًا، وإن تردد لضعفه ولإنسانيته العاجزة؛ فإنه لا ينسى أبدًا ذلك لله تعالى؛ لذلك جعل الروح والفرح في اليقين والرضا.

وانظر إلى نفسك يوم أن ترضى بقضاء الله تعالى النازل عليك ترى نفسك مسرورًا، مقتربًا من ربك، محبًّا له، وأنه قد أفادك وأصلحك وقضى لك ما يكون سبب فرحك وسرورك يوم تعلم حكمة ذلك، ويوم يظهر لك حقيقة هذا الأمر.

وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، انظر إلى المتشكك الساخط تراه حزينًا، وتراه مهمومًا، وماذا سيفعل غدًا وقد نزل به اليوم كذا وكذا، وقد حدثت له مصيبة كذا وكذا، وماذا سيحدث له؟ وماذا سيحدث لأولاده؟ وماذا ينتظره؟ وماذا سيعمل في المال والفلوس والصحة، ويركبه الهمّ ويركبه الحزن؛ بسبب عدم رضائه بقضاء الله -تبارك وتعالى-، بسبب تردده في أن يقبل ما قضى الله تعالى، بسبب تشككه وتسخطه في أمر الله تعالى؛ لذلك ينبغي أن يعلم المرء أن ما هو فيه من هموم وأحزان وأنكاد وأوجاع كل ذلك لأنه يود أن يغير قضاء الله. وأنه معترض على هذه الأقدار.

لماذا أنت حزين؟ لأنك لست فرحًا بما أنت فيه مما قضى الله لك، لو كنت قد رضيت بما قضى الله لك مما نزل بك من المصائب، أو من البلايا؛ فإنك حينئذ لا تود أن يتغير، علمت أن الله تعالى هو الذي أنزل ذلك، وأنزله لحكمة، وقد خفّفه عليك، وما يريد بذلك أن يهلكك -سبحانه وتعالى-، وإنما يريد بذلك طاعتك وقربك ورفع دعائك إليه -سبحانه وتعالى-، ويريد بذلك في نهاية الأمر ما يصلحك لا ما يفسدك -سبحانه وتعالى-، فإن أحسست بذلك؛ رضيت عن ربك -سبحانه وتعالى-، وإن تشككت وتسخطت وأردت ألا ينزل بك ذلك، أو لو كان أخفّ من ذلك، أو لو أبعد من ذلك، أو لو ليس في هذا الوقت، أو فيما تتردد فيه وتتسخط فيه

على الله تعالى؛ احتوشتك الهموم، وأحاطت بك الأحزان والأوجاع والآلام، ولا تنفك مترددًا ساخطًا متألمًا متبرمًا، وكل ذلك لن يغير من قضاء الله شيئًا.

الراضي لا يتمنى غير الحال التي هو فيها

لذلك يقول: (وهي المسألة العالية العزيزة جدًا- كما قال: مقام رفيع عال جدًّا في الرضا)، فالراضي لا يتمنى غير ما هو عليه من شدة ورخاء، وهذا لأن في ذلك رضا الله تعالى، وهو قد أراد ما أراد الله تعالى ورضي به.

هذا هو المعنى؛ لذلك قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر، أي: أصبح وقد ألقى حمله -كما يقال- على الله تعالى، وأن ما نزل هو موضع سروره؛ لأن ذلك أمر الله تعالى، وأن ذلك رضا الله تعالى ؛ فارتضاه هو لنفسه.

الحياة الطيبة في الرضا والقناعة

وعاقبة هذا أن من وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيم وسرور، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧]؛ لذلك قال بعض السلف: الحياة الطيبة هي الرضا والقناعة.

كل هذا في المصائب والبلايا النازلة عليك، وليس معنى هذا أن تأتي في معاصي الله - سبحانه وتعالى- وترضى بما أنت فيه، أو فيما أمرك الله تعالى في السعي إليه وتجلس، بل أن تعارض القدر بالقدر -كما يقول أهل العلم- لا، بل الرضا يكون بالقضاءِ الذي قد كتبه الله تعالى عليك فتسعى في الأرض، وتأخذ بأقدار الله تعالى من السعي والدعاء؛..

واعلم أن الدعاء من قضاء الله تعالى وقدره، أي: من الأقدار التي يدافع بها المرء الأقدار التي نزلت عليه، فإن دعا فهو من قدر الله تعالى، وإن رفع عنه -سبحانه وتعالى- شيئًا رفعه بقدره -جل وعلا- الذي هو عليه.

ما الذي يحمل أهل الرضا على الرضا؟

وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المبتلي وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متَّهَم في قضائه؛ فيرضون بذلك، هذا **الأمر الأول**.

الأمر الثاني: أنهم تارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، برضاهم عن ما رضيه الله تعالى لهم وأنزله بهم ودرجته أعلى الدرجات، وثوابه أعظم الثواب؛ فإنهم إن لاحظوا ثواب الرضا بالقضاء قد ينسيهم ألم المقضي به، كهذا المريض الذي يأخذ الدواء الكريه، أو يعمل الجراحات التي تقطع جسده، أو يأخذ هذه الحقن التي تمزق بدنه، ويعلم أن في عاقبتها الشفاء؛ فإنه يُنسيه هذه الأوجاع التي يسببها هذا الدواء نظير أن سيشفى بعد أيام، ويقوم ويمشي ويتحرك، كما لو لم يكن به شيء.

يقول: وتارة يلاحظون عظمة المبتلي -سبحانه وتعالى- وجلاله وكماله فيستغرقون في مشاهدة هذه المشاهدات العظيمة العالية؛ حتى لا يشعروا بالألم، وهذا لا يصل إليه إلا خواص أهل المحبة لله تعالى.

سئل بعض التابعين عن حاله في مرضه قال: أحبّه إليه أحبّه إليّ، أي: أحب شيء إلى الله تعالى هو أحب شيء إلى العبد.

والدرجة الثانية: أن يصبر على البلاء، ويعلم أن في الصبر على ما يكره خيراً كثيراً... وهذه الدرجة الثانية لا ينبغي لعبد أن ينزل عنها، واعلم أن هذه الدرجة لمن لم يستطع الرضا بالقضاء؛ فلما كان الرضا درجة عالية عزيزة لا يصل إليها كل أحد كان في الشرع الشريف مندوبًا إليه ليس واجبًا، والصبر على خلاف ذلك، فهو واجب على المؤمن حَتْم، وفي الصبر خير كثير؛ فإن الله تعالى أمر به أي بالصبر، ووعد عليه جزيل الأجر قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٧]؛ لذلك قال الحسن: الرضا عزيز قليل، ولكن الصبر معول المؤمن، أي: ما يعول عليه المؤمن إنما هو الصبر.

الفرق بين الرضا والصبر

واعلم أن الصبر كفّ النفس، وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، فتكفها عن التشكي مع وجود هذا الألم، وتمني زواله، مع كف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، فالصبر يحبس النفس والجوارح عن الشكوى وعن الخروج عن الحد الذى يخالف الشرع مع تحمل الألم وتمني أن يزول.

فإذا تحدثنا عن الشخص الصابر، وأعماله، نقول صبر لأمر الله تعالى، فصبر على هذا المكروه، فحبس لسانه ونفسه عن الشكوى، وحبس جوارحه عن التحرك بالمعصية؛ اعتراضًا على القدر، مع تمنيه زوال هذا الألم.

أما الرضا: فهو انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال ذلك المؤلم، وإن وجد الإحساس بالألم، أى: ولا يتمنى أن يزول ما به من شدة أو من رخاء، وإن وجد ألم ذلك وأحس به.

فإن قيل للرجل الراضي الذى نزل به قضاء الله تعالى، أتريد أن يتغير القضاء؟ قال: أحبه إلى الله تعالى أحبه إليّ، لا يتمنى أن يتغير ما قضى الله تعالى، لأن ذلك مما يرضى به -سبحانه وتعالى-، وفي ذلك الوقت هو يشعر بالألم، ويحس بوجعه ومصائبه التي قد نزلت عليه، ولكنه منشرح الصدر بقضاء الله -تبارك وتعالى- قد وسع صدره هذا القضاء والقدر من الله تعالى.

لذلك يقول: لكن الرضا يخفف هذا الألم الذي نزل به؛ لما يباشر القلب أى: من روح اليقين والمعرفة...

ثم قال النبي ﷺ : «**واعلم أن النصر مع الصبر**»[1]، وهذا الكلام من النبي ﷺ موافق لقوله -عز وجل-: ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ **فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٦٦].

كان بنو عبس في الجاهلية من الأشداء في القتال فسألهم عمر رضي الله عنه: بما قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر لم نلق قومًا إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا.

وقال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر.

وقال البطَّال[2]: الشجاعة صبر ساعة، وكان أحد شجعاء الإسلام المشهورين.

وهذا كله في جهاد العدو الظاهر، وهو جهاد الكفار، وهو كذلك في جهاد العدو الباطن، وهو جهاد النفس والهوى، واعلم أن فيه النصر على النفس والهوى والشيطان، وكأن النبي ﷺ يبين الطريق لكي يتحقق المرء بهذه المسائل كلها؛ فينتصر فيها بفضل الله تعالى.

[1] - الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣) رقم (٢٨٠٤)، وقال ابن تيمية في التوسل والوسيلة (٥٢): معروف مشهور، وحسنه وابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٣٢٧/١) وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٨٨) : حسن وله شواهد، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٥٩/١): حسن جيد.

[2] - البطَّال رضى الله تعالى عنه؛ رأس الشجعان والأبطال أبو محمد عبد الله البطال، كان من أعيان أمراء الشاميين، وكان مقره بأنطاكية، أوطأ الروم خوفاً وذلاً. قال الذهبي: كُذِب عليه أشياء مستحيلة فى سيرته الموضوعة. قال البطال: اتفق لنا أنَّا أتينا قرية لنُغِير، فإذا بيت فيه سراج وصغير يبكى، فقالت أمه: اسكت أو لأدفعنك إلى البطال. فبكى، فأخذته من سريره وقالت: خذه يا بطال، فقلت: هاته. استشهد سنة اثنتى عشرة وقيل: ثلاث عشرة ومائة. للاستزادة من أخباره رحمه الله تعالى: انظر الذهبى (٤٨٨/٤).

جهاد النفس والهوى من أعظم الجهاد

ثم في النهاية أرشد -صلوات الله وسلامه عليه- إلى الطريق الذي إن سلكه المؤمن يوشك أن ينتصر على نفسه وهواه وعلى عدوه الخارج...

يقول: هذا في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك في جهاد العدو الباطن وهو جهاد النفس والهوى؛ فإن جهادهما -أي: النفس والهوى- من أعظم الجهاد كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى**»[1] كأنه يقول ﷺ: إذا أردت أن تحقق التوحيد، وأن تحفظ الله تعالى، وأن تتعلم كيف تسأله، وتستعين به، وكيف يباشر قلبك اليقين والرضا والصبر، وكيف تثق فيما عند الله تعالى، وأن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، فطريقك في تعلم ذلك كله أن تجاهد نفسك، وأن تعلم أنك متى صبرت على جهادها في هذه القضايا فزت عليها، وانتصرت في معركتك بفضل الله تعالى، واعلم أن سبب خذلانك وهزيمتك وتقهقرك وحرمانك وبُعْدِك عدم صبرك على تنفيذ مراد الرب منك والوصول لمرضاته سبحانه وتعالى..

قال إبراهيم بن أبي عبلة لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ فقال: جهاد القلب.

ومشهور بين الناس أن هذا حديث وليس كذلك إذ لا يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وإنما الحديث الصحيح كما أشرنا قوله ﷺ السابق: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى**» فإن

---

[1] - رواه الترمذي (١٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح، ط دار الكتب العلمية، بيروت ورواه ابن حبان في صحيحه (٤٨٦٢) ولفظه (فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: (**ألا أخبركم بالمؤمن: من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب**) وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح).

انتصر على نفسه؛ فإنه يوشك أن ينتصر على عدوه في الخارج؛ لأنه لا ينتصر على عدوه من الكفرة والمشركين في الخارج وهو مهزوم أمام نفسه وشيطانه وهواه؛ فالله تعالى لا ينصر المهزوم ولا يؤيده، وهذا سبب وسر انهزام المسلمين في كل زمان ومكان، أنهم متى انتصرت عليهم أنفسهم وأهواؤهم؛ انتصر عليهم عدوهم في الخارج، ومتى استقاموا على أمر الله تعالى، ولم يميلوا مع أهوائهم وحظوظ أنفسهم، واتبعوا تعاليم النبي ﷺ والتزموا أمره ونهيه وتسننوا بسنته ﷺ ؛ كان ذلك طريق نصرهم ورفعتهم وعلوهم، وهذا الواقع والتاريخ خير شاهد على ذلك كله.

لذلك قال أبو بكر الصديق ﷺ في وصيته لعمر ﷺ حين استخلفه: إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك، يحذره إياها تحذيرًا شديدًا؛ لأنها أمارة بالسوء؛ فلو طغت عليه فإن الفشل سيلحقه والإخفاق سيصيبه في كل عمله، وسيكون مصيره إلى الخذلان والحرمان والفقر، وطريقه إلى البعد والطرد من باب الله -جل وعلا- لأنه صار عبداً للنفس والشيطان والهوى؛ أما من كان عبدًا لله تعالى فهو في محل رعاية الله -سبحانه وتعالى- وفي محل محبته، وفي محل نصره، وفي محل ولايته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]..

فهذا الجهاد يحتاج أيضًا إلى الصبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه؛ غلبه وحصل له النصر والظفر، وملك نفسه فصار عزيزًا ملكًا، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك؛ غُلب وقهر وأسر، غلبه شيطانه ونفسه وهواه؛ فأسره وهزمه وصار عبدًا ذليلاً أسيرًا لشيطانه وهواه، يطيعهما كلما أمراه، فإذا أمراه بالنوم نام، بالتكاسل عن الصلاة تكاسل عن الصلاة، بالنظر إلى المحرمات نظر إلى المحرمات، ووقع في الغيبة والنميمة، فصار طوعًا للشيطان، مؤتمراً بأوامر نفسه وهواه تاركاً لأوامر الله جل فى علاه، وما يحبه ربه -جل وعلا- ويرضاه. فهو كما قيل:

إذا المرء لم يغلب هواه أقامه بمنزلة فيها العزيز ذليل

القوي مَنْ قوَّاه الله، والثابت مَنْ ثبَّته الله

قال ابن المبارك[1] -رحمه الله تعالى-: من صبر فما أقل ما يصبر أى: من صبر فإنه سيصبر شيئًا قليلاً، ثم يفوز وينتصر في الدنيا والآخرة، فتكون له العاقبة في الأولى والآخرة، ومن جزع فما أقل ما يتمتع، أى: ومن لم يصبر ضغط عليه هواه وشيطانه فأطاعه واتبع هواه وشهواته ونزواته في الدنيا؛ فإن ما يتمتع به من ذلك كله إنما هو قليل، سرعان ما يزول عنه، ويفاجأ بعاقبته النكدة عندما يأتيه ملك الموت؛ لذلك فعلى العاقل أن يوازن؛ إن صبر فإنه أقل ما يصبر، ساعات، أيامًا، سنوات، ثم يخرج إلى الله تعالى محمودًا مقبولاً من الرب -جل وعلا-، وإن جزع فسيتمتع قليلاً ثم يعود إلى الله تعالى مهانًا ذليلاً خارجًا عن طاعته -جل وعلا- مفرطًا في أوامره واقعًا في معاصيه ومساخطه، ينتظر بذلك سخط الله تعالى.

فقوله ﷺ: «وأن النصر مع الصبر» قد تعلمنا منه إذن أن يبدأ المرء فيحاول أن يصبر على أوامر الشرع، وعلى نواهيه، وعلى حدوده، وعلى حقوقه، وعلى مجاهدة نفسه في ذلك، وكلما حاولت نفسه أن تغلبه أو أن تقهره استعان عليها بالله تعالى، ووقف طويلاً بباب الله تعالى يدعوه ويلتجئ إليه، ويتمسك بالوقوف ببابه يرجو أن يرحمه ربه، وأن يدفع عنه، وأن يذود -سبحانه وتعالى- عنه؛ لأنه إذا لم يدفع عنه -سبحانه وتعالى- وينصره؛ فإنه لن ينصره أحد، وسيقع بضعفه وقلة حيلته أسيرًا لأعدائه من النفس والهوى والشيطان، وإن القوي من قواه الله

---

[1] - عبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه؛ ابن واضح الإمام شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء فى وقته وأوانه، الحافظ الغازى، أحد الأعلام. له التصانيف النافعة الكثيرة. مات فى طلب العلم والغزو والتجارة والإنفاق على الإخوان فى الله تعالى. قال العجلى: ابن المبارك ثقة ثبت فى الحديث، رجل صالح يقول الشعر وكان جامعاً للعلم. وقال العباس بن مصعب: جمع عبد الله الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء والتجارة والمحبة عند الفرق. وقال يحيى بن آدم: كنت إذا طلبت دقيق المسائل فلم أجده فى كتب ابن المبارك أيست منه. للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى (٦/٢٠٩).

تعالى، والثابت من ثبته الله -تبارك وتعالى-، فلجوؤه واستعانته بربه، كما ذكر النبي ﷺ: **«وإذا استعنت فاستعن بالله»**.

فقوله إذن ﷺ:**«واعلم أن النصر مع الصبر»** يشمل النصر في الجهادين: جهاد العدو الظاهر، وجهاد العدو الباطن، فمن صبر فيهما نصر وظفر بعدوه، ومن لم يصبر فيهما وجزع قُهر وصار أسيرًا لعدوه أو قتيلاً.

ثم ماذا بعدُ؛ إن صبَر ولم يجزع ماذا سيكون جزاؤه؟ جزاؤه النصروالفرج يقول ﷺ: **«واعلم أن الفرج مع الكرب»** إذا ضاقت واستحكمت حلقاتها وظننت أنها أوشكت أن تهلكك، وأن تبيدك، وأنه لم يبق منفذ ترى منه شعاع أمل يفرّج عنك ما أنت فيه، اعلم أن الفرج مع الكرب، وأن الفرج أوشك أن يأتي؛ فاستمسك وازدد صبرًا فإنه يوشك أن ينفرج ما أنت فيه، وأن يرتفع ما وقع بك، وأن ينفك ما ضاق عليك؛ وهذا قول الله تعالى يشهد لهذا المعنى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ** ﴾ [الشورى : ٢٨] بعدما قنطوا وأصابهم اليأس من أن يفرج الله تعالى عنهم، أو أن يحيوا من جديد يعني: منع منهم مدد السماء وهو المطر، وجفت الأرض، وصاروا أقرب إلى الموت والهلاك كما يقول المولى -سبحانه وتعالى- وهذه حالة عامة، ولكن الله -جل وعلا- صورها فى القرآن بهذه الصورة؛ لأنها أقرب ما يكون إلى ذهن المخاطبين من أهل البداوة في زمن النبي ﷺ كانوا ينتظرون الغيث، فإذا لم ينزل أوشكت المراعي أن تجف، وأوشكت الأغنام وأبقارهم ومواشيهم وإبلهم أن تنفَق وتموت، وأوشكوا هم بالتالي أن يذهبوا ويهلكوا؛ لذلك قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ** ﴾ [الشورى : ٢٨] أن يصلوا إلى مرحلة القنوط واليأس، وأن يصلوا إلى تصور الهلاك والاستعداد له، وأن كل شيء يبشر بأنهم قد أوشكوا أن يموتوا وأن يذهبوا على هذه الحال السيئة، أو على هذا الشقاء والنكد إذا برحمة الله تعالى تنزل،

وإذا بخيره -سبحانه وتعالى- ينتشر، وإذا بغيثه يلحق عباده فيحييهم مرة أخرى -سبحانه وتعالى- وينعشهم ويرفع عنهم -جل وعلا- ويرحمهم سبحانه وتعالى.

وانظر إلى حالك؛ فكلما ازداد ما أنت فيه من كرب وبلاء فاعلم أنه يوشك أن ينفرج ما أنت فيه، ويوشك أن يرتفع البلاء، وأن تنزل الرحمة، وأن ينتشر الغيث، كما ذكر الله تعالى.

وقد ذكر الشيخ حديثًا طويلاً أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد، وفيه: «**علم الله يوم الغيث، إنه ليشرف عليكم أزلين قنطين، ويظل -سبحانه وتعالى- يضحك قد علم أن غيركم إلى قرب**»[1]، ومعنى كلامه: أنه -سبحانه وتعالى- يعجب من قنوط عباده من يأسهم عند احتباس القطر عنهم، ويعجب من يأسهم من الرحمة وقد اقترب وقت فرجه ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم، وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون؛ لذلك قال: ﴿ **فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ** ﴾ [الروم : ٤٨-٤٩] يعني: متحيرين أشد الحيرة فيما هم فيه من النكد ولما يوشك أن يقع بهم من الهلاك.

شرح الحديث:

علم الله يوم الغيث أي: اليوم الذي يغيثكم فيه، وينزل فيه رحمته فيشرف أي: يطلع عليكم فيجدكم أزلين في شدة وضيق قنطين يائسين مما أنتم فيه؛ فيظل يضحك -سبحانه وتعالى- قد علم أن غِيَرَكم إلى قرب، يعني: أن تغير حالكم قد قرب، وأنه يوشك أن يرتفع ما أنتم فيه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ** ﴾ أي: وظن أقوامهم ﴿ **أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ** ﴾ يعني: كذبوا بما قالوا من موعود الله لهم ﴿ **جَآءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ يعني: الرسل استيأسوا

---

[1] - رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند (١٦٢٥١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٦١١): رواه عبد الله والطبراني بنحوه وأحد طريقي عبد الله إسنادها متصل ورجالها ثقات.

من إيمان أقوامهم، وظنوا أنهم لم يؤمنوا، وأنهم سينزل بهم البلاء والعذاب، وظن أقوامهم أن الرسل قد كُذبوا يعني: لن يحدث ما قالوا ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[يوسف : ١١٠] ، أي: لما قيل لهم: سننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين، وطال الأمد على الكافرين ولم يهلكوا إذا بهم يقولون: إن الرسل قد كذبوا، والذى أخبرهم بذلك لم يخبرهم خبرًا صادقًا ولم يحدث ما قالوا.... ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ في عظم الشدة وعظم البلاء جاء نصر الله -تبارك وتعالى- بعد اليأس الكامل من وقوع ذلك، أو من انتظاره.

وقال تعالى كذلك يبين هذا المعنى في كلامه للمؤمنين المتقين: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة : ٢١٤] يعني: وصل بهم الحال من الزلزلة والضعف والشدة والضيق والبلاء إلى أن قالوا: ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ ﴾[البقرة : ٢١٤] الذي قال؟ وأين وعده الذي وعد؟ ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة : ٢١٤].

فكلما ضاقت، وكلما استحكم البلاء وازداد الكرب؛ دل ذلك على قرب الفرج، كما ذكر الحديث: «... **فيظل يضحك -سبحانه وتعالى- قد علم أن غيركم إلى قرب**»[1] أن تغيير حالكم قد قرب وأوشك، وهذا يعطي المؤمن الثقة في الله تعالى، وألا يتزحزح قلبه عن يقينه في ربه -جل وعلا-، وأنه ما يزال صابرًا واثقًا في نصر الله تعالى، وأنه متى ازداد البلاء والكرب تيقن في قرب فرج الله له -سبحانه وتعالى-، وأنه لا يزداد الكرب إلا وجاء الفرج من الله تعالى.

---

[1] - سبق تخريجه.

فاقصص القصص لعلهم يتفكرون

قال الله تعالى حاكيًا عن يعقوب -عليه السلام- أنه قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي: ابحثوا عنه ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ وهو نهى للمؤمن ليتعلَّم أنه مهما وقع في ضيق وشدة لا ييأس من رحمة الله، ولا ييأس من كرمه -سبحانه وتعالى-، ولا ييأس من فرجه، بل على العكس كلما ازداد الضيق وزاد البلاء؛ اقترب الفرج، واقترب تغيير الحال من الله تعالى، ولكن مع صبر المؤمن، واستيقانه ويقينه فيما عند الله تعالى.

وكم قصَّ -سبحانه وتعالى- علينا قصصًا كثيرًا من تفريج كربات أنبيائه عند تناهي الكرب، عندما صار الكرب متناهيًا لأقصى درجة ووصل إلى درجة النهاية كإنجاء نوح-عليه السلام- ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار وفدائه لولده الذي أُمر بذبحه، وإنجاء موسى وقومه في اليم، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في قصة موسى في قوله ﷺ: «تعرف إلى الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة» وكذلك في قوله ﷺ :«**احفظ الله تجده أمامك**» لما قال قوم موسى: ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾

إن مع العسر يسرا

قوله ﷺ : «**واعلم أن مع العسر يسرًا**» فإذا دان الفرج مع الكرب يعني إذا زاد الكرب وتناهى كان الفرج في أثره سريعا كذلك إن تعسرت الأمور، وضاقت على المرء وصارت أحواله إلى تلك الحال السيئة الضيقة؛ فإن ذلك دليل قرب اليسر من الله جل وعلا- ، وقد أكد المولى -سبحانه وتعالى- ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ [الشرح : ٥ ٦] وكأن مع العسر يسرين لا يسراً واحداً كما ذكر الله تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ**﴾ هو عسر واحد ومعه يسران كما ورد عن الصحابة وغيرهم في تفسير هذه الآية الكريمة.

لذلك يقول الشيخ: وقوله ﷺ :«**واعلم أن مع العسر يسرًا**» هو منتزع مأخوذ أي: من قوله -جل وعلا-: ﴿**سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ [الطلاق : ٧]، وكأن المؤمن لا بد أن يفهم أن حياته متقلبة فيها من العسر واليسر، وإلا لم تكن حياة، إذا أرادها أن تكون كما أراد؛ فستكون حياة متيسرة لينة يملأها السكون والدعة والأكل والشرب والشهوات، لا يريد تنغيصا ولا نكدا، ولا يريد مرضا ولا حزنًا ولا ألمًا كيف يدخل الجنة إذن؟ والمولى سبحانه قال ذلك: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ**﴾ [البقرة : ٢١٤] وكذلك قال المولى -جل وعلا-: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ**﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، فلا بد أن يظهر الله تعالى هؤلاء على حقيقتهم، أن يظهرهم في عالم الشهادة، أن يتضحوا وأن يظهر هؤلاء الذين جاهدوا وصبروا، أو هؤلاء الذين لم يصبروا وخرجوا عن أمر الله تعالى.

أحسنْ جوار أيام البلاء

وقد ذكرنا كيف يعمل المرء في هذه المصائب النازلة عليه، وإن له فيها طريقين، أو درجتين:

الأولى: وهي درجة الرضا، وقلنا: هذه درجة عزيزة عالية.

والثانية: درجة الصبر، فإن كان الرضا مستحبًا؛ فالصبر واجب لا شك في ذلك...

وقوله -عز وجل-: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [الشرح : ٥-٦] وقال الله تعالى: ﴿ **سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** ﴾ [الطلاق : ٧] هذا الكلام لا خُلف له فهو موعود الله تعالى، ولكن الناس -كما ذكرنا- قنطون متشككون ومترددون ومرتابون، فإذا نزل بهم الضيق، أو نزلت بهم الشدة، أو نزل بهم العسر؛ فإنهم يذهلون عن هذا المعنى وهو: أن هذا العسر لا بد أن يعقبه يسر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ **سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** ﴾ [الطلاق : ٧] ؛ لذلك ترى الإنسان متأزمًا حزينًا متألمًا وقد يبكي ويتشكى، ولا يعلم أن هذا العسر الذي أصابه إنما ليرفع منزلته، أو ليختبر الله -تبارك وتعالى- به صبره ورضاه، أو لأن الله تعالى قد خفف به ما هو أشد منه عنه، وكل المعاني التي ذكرناها في البلاء.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال: «**لو أن العسر دخل جحرًا لجاء اليسر حتى يدخل معه**» ، وإن كان في سند هذا الحديث مقال، وإنما أشرنا إليه للحديث التالي يقول: وبإسناده أن أبا عبيدة ﷺ حصر فكتب إليه عمر يقول ﷺ : «**مهما ينزل بامرئ شدة يجعل الله تعالى بعدها فرجًا**»[1] مهما تنزل شدة أو كرب يجعل الله تعالى بعد ذلك فرجًا «**وإنه لن يغلب**

[1] - أورد هذا الأثر عن عمر بن الخطاب ابن حجر في فتح الباري (٥٨٣/٨).

عسر يسرين»[1]. وقال -جل وعلا-: ﴿ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران ٢٠٠] فلما حُصر أبو عبيدة ﷺ ووصل به الحال إلى أن كتب لعمر يستنجده أنهم قد حصروا؛ ليوصل له مددًا أو ليرسل إليه من يفك حصره، إذا بعمر ﷺ يعلمه أو يذكره ما تعلم من النبي ﷺ؛ يقول: «مهما ينزل بامرئ من شدة يجعل بعدها فرجًا[2]، وإنه لن يغلب عسر يسرين؛ فاصبر -على هذا الحصار- وصابر ورابط والفلاح لكم إن شاء الله تعالى، أي: البقاء والظفر لكم في الأولى والآخرة.

[1] - أورد هذا الأثر عن الحسن البصري البيهقي في شعب الإيمان (٣٢٦٣/٧) وقال ابن حجر في فتح الباري (٣٧٢/٤): مرفوع بإسناد ضعيف، وروي مرسلاً وإسناده إلى الحسن صحيح.

[2] - أورد هذا الأثر عن عمر بن الخطاب ابن حجر في فتح الباري (٥٨٣/٨).

من لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب، واليسر بالعسر

وقد يسأل السائل: وما علاقة أن يكون بعد العسر يسر؟ قال: *ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى حصل للعبد إياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه حينئذ بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله تعالى*، وهو أي: التوكل على الله تعالى *من أعظم الأسباب التي تُطلب بها الحوائج؛ فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]*، ومعنى هذه الجملة الصغيرة أنه إذا تناهى الكرب وعظم، وتلفت المرء يمينًا وشمالاً حوله ليرى أحدًا ينقذه، أو ليرى أحدًا يدفع عنه، أو ليرى أحدًا يتوسط له؛ فلم يجد حينئذ أيس من المخلوقين يعني: يئس من المخلوقين أن يفكوا كربه، أو يفرجو همه، أو أن ييسروا عليه ما عسر من أمره؛ فتعلق قلبه بالله تعالى، وتوجه إلى الله -جل وعلا-؛ فحسن توكله على الله الذى بيده النفع والضر، فهو الذي يستطيع وحده لا شريك له أن يكشف عنه، وأن يفرج عنه حينئذ؛ لِمَ؟ لأن التوكل من أهم ما يكشف الله تعالى به الكرب، ويقضي به الحوائج، فإذا ما توكل العبد على الله تعالى؛ فإن الله تعالى حسبه وكافيه -جل وعلا-، وهذه المسألة المهمة التى يتعلمها المؤمنون وهى: أن الله تعالى عندما يطلع على قلب عبده فيجده يعلم أن الله تعالى هو الذي يفرج، وهو الكافي، وهو الذي يستطيع أن يفك كربه، وأن ينفس من ضيقه، وأن ييسر أموره؛ فإن الله تعالى لا يخيبه ساعتئذ؛ لأنه قد لجأ إلى الله تعالى ولا يلجأ إلى الله تعالى أحد فيرده -سبحانه وتعالى-، بل على العكس إذا رفع إليه يديه لا يردهما صفرًا خائبتين[1]، بل يضع فيهما الخير -سبحانه وتعالى-؛ لأنه علم أن عبده قد وحَّده حق توحيده، وأفرده بالعبادة التي هي الدعاء واللجوء والاضطرار، وذلك قوله

---

[1] - سبق تخريجه.

تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢].

حتى يكون توحيدهم خالصًا لربهم -سبحانه وتعالى-، فإذا ما رآهم موحدين متعلقين به كشف عنهم؛ لأنه هو ربهم على الحقيقة فلا يخذل عبيده -سبحانه وتعالى-، ولا يردهم ولا يتركهم للشيطان والوساوس والنفس والهوى، وإنما يحفظهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٣٦].

وملخص الكلام أن من لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى حصل للعبد إياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله تعالى الذى هو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج، كلما كان لك حاجة في الدنيا والآخرة توكل على الله تعالى، لا تسأل أحدًا كما ذكرنا أن النبي ﷺ بايع كثيرًا من الصحابة على ألا يسألوا أحدًا شيئًا، وكان سوط أحدهم يقع فلا يطلبه، بل ينزل ليأخذه بنفسه منهم أبو بكر وثوبان وصهيب وغيرهم [1].

وهو أي: التوكل من أعظم الأسباب التي تُطلب بها الحوائج؛ فإن الله تعالى يكفي من توكل عليه كما قال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] فانظر إليك أيها المسكين أنت محتاج إلى الله تعالى أن يرفع عنك، وأن يقضي حوائجك، وأن يعطيك سؤلك، وأن يفك عنك كربك في مالك في نفسك في مرضك في ولدك في صحتك أن يكون لك في طاعتك وعبادتك، أن يحفظك في سمعك وبصرك ولسانك ويدك وبطنك وفرجك، أن يحفظ عليك

[1] - سبق تخريجه.

جوارحك، أن يحفظ عليك إيمانك وتقواك وعبادتك له، وأن يزيدك من ذلك كله فاعلم أنه لن يحصل لك ذلك كله إلا بحسن التوكل عليه، سبحانه وتعالى.

قال الفضيل بن عياض ﷺ : والله -يحلف بالله تعالى- لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا؛ لأعطاك مولاك كل ما تريد... أي: لو يأست من الخلق فقلت: الخلق هؤلاء قد ماتوا -كما ذكرنا عندما كنا نتكلم على هذا المعنى- في قوله: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ** ﴾ [الفرقان : ٥٨] فإنك قد تستعين بأحد من الناس وتقول: سوف يقضي حاجاتي، أو سوف يعطيني، أو يقرضني، أو يتوسط لي، أو سأذهب لفلان وفلان ليعمل كذا وكذا وكذا وإذا به يموت؛ فتصبح وقد اتكلت على الميت الذي لم ينفع نفسه فضلاً عن أن ينفعك أو ينفع غيره؟..

هذا الكلام الجميل الذي ينبغي أن يكون من متعلق أهل الإيمان: والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا؛ لأعطاك مولاك كل ما تريد، دعهم وشأنهم الزائل وقف بباب الله تعالى، وقل: أي ربي فإذا به يقول: نعم عبدي، يعطيك ما شئت؛ لأنه -سبحانه وتعالى- ﴿ **إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس : ٨٢] لا يثقله شيء، ولا يتعبه شيء، ولا يختلف عليه شيء -سبحانه وتعالى-، ولا يطول عليه شيء، ولا يرهقه شيء -جل وعلا-.

تفويض الأمور إلى الله سؤال ودعاء

وذكر إبراهيم بن أدهم[1] عن بعضهم قال: ما سأل السائلون مسألة هي ألحف من أن يقول العبد: ما شاء الله... يعني بذلك التفويض إلى الله -عز وجل-...

وقال سعيد بن سالم: بلغني أن موسى -عليه السلام- كانت له إلى الله تعالى حاجة؛ فطلبها فأبطأت عليه؛ فقال: ما شاء الله فإذا حاجته بين يديه؛ فعجب، فأوحى الله تعالى إليه: أما علمت أن ما شاء الله أنجح ما طلبت به الحوائج، يعني: أن توكلك على الله، وتفويضك الأمر له -سبحانه وتعالى- وثِقَتَك في كونه إذا شاء شيئًا لا يرده أحد!.. ذلك التفويض، وذلك التوكل وتلك الثقة أنجع ما طلبت به الحوائج.

هذه اللطيفة الأولى من لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر أن الكرب إذا اشتد كما ذكرنا وعظم وتناهى وحصل للعبد الإياس من المخلوقين فإن الله تعالى يقضيه؛ لأن ذلك حقيقة التوكل.

واللطيفة الثانية: يقول: فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج واستبطأ اليسر من الله تعالى، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه إلى الله تعالى وتوكله إليه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة عليه أن يعود على نفسه باللوم، فلو كانت تستحق ذلك الفضل لأعطاها الله تعالى، فعليه أن يتعلم كيف يلوم نفسه ويعاتبها ويوبخها على أنها قد وصلت إلى الحد الذي لم يستجب الله لها، فإذا وصل إلى هذه

[1] - إبراهيم بن أدهم رضى الله تبارك وتعالى عنه؛ ابن منصور بن يزيد بن جابر أبو إسحاق العجلى. الإمام القدوة العارف سيد الزهاد. ولد بمكة. قال النسائى: هو ثقة مأمون أحد الزهاد، وقال سفيان: كان إبراهيم بن أدهم يشبه بإبراهيم الخليل، ولو كان فى الصحابة لكان رجلاً فاضلاً. ورآه ابن عَجْلان فاستقبل القبلة ساجداً وقال: سجدت لله شكراً حين رأيتك. للاستزادة من أخباره رضى الله عنه: انظر الذهبى (٥/٤٤٦).

الحال؛ فإن الله تعالى يفرج عنه مباشرة؛ لأن الله تعالى يحب من عبده أن يراه منكسرًا بين يديه، يعود باللوم على نفسه، وأنها هي السبب فلا يقول: أنا دعوت الله كثيرًا ولم يستجب لي.

وقلنا: إن الله تعالى يحب الإلحاح في الدعاء، ولكنه -سبحانه وتعالى- يحب أن تُحقق في نفسك أسباب الرجاء فإذا لم تحقق أسباب الاستجابة فكيف يستجيب لك؟ فإذا ما عدت على نفسك ولُمْتَها ولم تلم القدر، ولم تلم ربك أنه لم يستجب لك كأن ذلك محض فضل الله تعالى فى أن يستجيب لك، إن أعطاك فبرحمته وفضله، وإن منعك فبعدله وذنبك؛ فتعود على نفسك وذنوبها ومعاصيها التي كانت السبب في منع الاستجابة من الله تعالى، فحينئذ يعلم الله -تبارك وتعالى- افتقارك إليه، واضطرارك له، وأنك قد حاولت وجاهدت نفسك الأمارة بالسوء الممتلئة بالظلم والعدوان، وأخرجت ذلك الظلم والعدوان منها؛ حتى يستجيب الله لك.

قل هو من عند أنفسكم

قال الشيخ: وأيضًا فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج من الله تعالى، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، يعود على نفسه باللوم ويقول لها: إنما أوتيت من قبلك، أنت السبب ولو كان فيك خير لأجاب الله تعالى هذا السؤال، بل أنت محض الشر والعدوان والظلم والآفات والبعد والتقصير، حتى أني قد مُنعت بسببك الإجابة من الله تعالى.

واعلم أن هذا اللوم أحب إلى الله تعالى من كثير من الطاعات، يعني: أن يظهر قلة نفسه وفقرها وضعفها وسوء أخلاقها إلى الله تعالى خير من طاعات كثيرة يأتيها المرء، ويظن أنه بهذه الطاعات قد صار له قدر عند الله تعالى، أو قد صار له قيمة عند الله تعالى؛ فيخرج عن حد الافتقار والعبودية لله -جل وعلا-.

لذلك يقول: وهذا اللوم للنفس أحب إلى الله تعالى من كثير من الطاعات؛ فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه -سبحانه وتعالى-، ويوجب له اعترافه بأنه أهل لما نزل به من البلاء، فيقول: نعم أنا أهل هذا البلاء وأكثر منه لولا فضلك ورحمتك، وأن نفسي هذه الأمارة بالسوء الممتلئة بالإثم والعدوان والظلم والمعاصي والفحشاء إذا لم يكن اليوم كان في الأمس، وهكذا...

فعندما يظهر ذلك لربه تسرع حينئذ له الإجابة، بتفريج الكرب عند ذلك؛ فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم لله -جل وعلا-.

قال وهب: تعبَّد رجل زمانًا ثم بدت له إلى الله حاجة فصام سبعين سبتًا، يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل الله تعالى حاجته فلم يعطها؛ فرجع إلى نفسه فقال: منك أُوتيت، -أنت السبب، وقد حرمت بسببك لو كان فيك خير أعطيت حاجتك-؛ فنزل إليه عند ذلك ملك فقال: يا ابن آدم ساعتك هذه التي تزري فيها على نفسك خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله تعالى حاجتك.

والمعنى المقصود من هذه القصة أنه صام لله سبعين سبتًا يتوسل بها إلى الله تعالى أن يقضي له حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة؛ يريد مثلاً أن ييسر الله تعالى له قيام الليل، أو الصيام، أو أن ييسر له الذكر، أو قراءة القرآن، أو أن ييسر له السعي في طلب العلم، أو السعي في مصالح المسلمين، أو أن ييسر له دوام الذكر والفكر والإقبال على الله تعالى، أو أن ييسر له طريق التوبة إليه -جل وعلا-، أو أن ييسر له طريقًا من طرق الخير يحبه عليها ويثيبه بها، وصام سبعين سبتًا يرجو ذلك، أو أنه صام سبعين سبتًا يطلب حاجة من حوائج الدنيا التي تعرض له أن يقضيها ربه؛ فإذ به لم يعط حاجته؛ فرجع إلى نفسه باللوم وقال: أنت السبب لو كان فيك خير لأُجبت، وإنما معاصيك أكثر من أن يستجاب لك، وذنوبك وآفاتك أعظم من أن تتنزل عليك رحمة الله

الصحابة خير هذه الأمة وأبَرُّها

وقد علمنا أن أصحاب النبي ﷺ كانوا هم الأوائل في تطبيق هذه المعاني، يعني: إذا قال له ﷺ :«**احفظ الله يحفظك**» فإنه يسارع إلى ذلك، أو قال: «**إذا سألت فاسأل الله**» يكون أمره كذلك، **أو**«**إذا استعنت فاستعن بالله**» كان كذلك والمقصود: أنهم كانوا إذا سمعوا شيئًا من النبي ﷺ سارعوا إلى تطبيقه، فلم يكن حالهم كحالنا السيئ الذي نحياه اليوم، سواء في أخذ الأمور بمجرد السماع، أو عدم الالتزام بأوامره وآدابه ﷺ، وأن يظن المرء أنه على خير، وينسى نفسه، وينسى ذنبه، وينسى موقفه وعرضه على الله تعالى.

ولنعتبر بقصة من قصص الصحابة التي تبين الاستعانة بالله تعالى، وهي حديث طويل نذكره؛ حتى يتعلم المرء من أحداث الصحابة وأعمالهم وحسن تلقيهم لكلام النبي ﷺ نتعلم منها كيف حقّقوا في أنفسهم الاستعانة بالله تعالى، وهي قصة جميلة نذكرها نختم بها الحديث؛ لتبين هذه المعاني.

وهذه القصة هي قصة عبد الله بن الزبير مع والده رضي الله عنه وهو الزبير بن العوام فارس الإسلام، وابن عمة النبي ﷺ، وحواريه وابنه عبد الله بن الزبير من أسماء بنت أبي بكر أخت السيدة عائشة رضي الله عنه.

يقول: عن أبي خبيب عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي رضي الله عنه قال: **لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني، فقمت إلى جنبه، فقال: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني ما أراني إلا سأقتل اليوم مظلومًا، وإن من أكبر همي لَدَيْني، أفترى دَيْننا يُبقي من مالنا شيئًا؟ ثم قال: يا بني بع ما لنا واقضِ ديني، وأوصى بالثلث وثلثه لبنيه -يعني: لبني عبد الله بن الزبير**

تعالى وفضله، وأخذ يلقى اللوم على نفسه.... قيل له حينئذ: يا ابن آدم ساعتك هذه التي أزريت فيها على نفسك وأقررت فيها بخطئك وذنوبك ومعصيتك لله تعالى أعظم من عبادتك.

فالذى نتعلمه إذن معنى الانكسار لله رب العالمين. من منا لم تمنع ذنوبه الاستجابة عند الله تعالى؟ من منا إذا دعا استُجيب له، وأعطي سؤله وحاجته؟ لا أحد -إلا من رحم الله تعالى-؛ والمؤمن اليوم -إلا من رحم الله تعالى- مقصر في دعاء الله تعالى يعلم أنه لن يستجاب له ابتداء فأراح نفسه فلا يدعو بشيء، وإن دعا دعا وانتهت المسألة؛ لأنه على يقين أنه لن يقضى له شيء عند الله تعالى... لماذا؟!.. لأنه وصل إلى اليأس من أن يستجيب الله له، وهذا المعنى هو عكس المطلوب فإن المرء إذا يأس من ذلك، وعلم أن الله تعالى قد منع إجابته إياه؛ فإنه يحمله على أن يتذكر ذنوبه ومعاصيه وسيئاته التي جناها، فينكسر إلى الله تعالى، ويرفع إليه أكف الضراعة وأنه لا يستحق ذلك الفضل من الله تعالى، وأن نفسه السبب في منع الإجابة؛ فينكسر بذلك لله تعالى، فالانكسار هذا مطلوب إذن من كل أحد في كل وقت؛ حتى يكون أقرب إلى ربه -جل وعلا-، وأحب إليه، فتكون ساعته هذه أفضل من عبادته تلك، ساعة الافتقار والتذلل إلى الله تعالى، وإظهار فقر النفس وجهلها وظلمها وعدوانها، وأنها ليست أهلاً لفضله -سبحانه وتعالى-، وأن يقر بذنوبه ومعاصيه وسيئاته، وأنها هي السبب الذي يمنع إجابة الله له، وأنه لولا فضل الله تعالى لهلك، ولولا مغفرته وستره -سبحانه وتعالى- لانفضح؛ فإن ذلك كله أحب إلى الله تعالى؛ فإنه يحب هؤلاء المنكسرين المتذللين، وهو معنى العبودية الذي به يفرج الله تعالى، ويستجيب الله -جل وعلا-.

ثلث الثلث-، قال: فإن فضل من مالنا بعض قضاء الدين شيء؛ فثلثه لبنيك[1]، قال هشام: وكان ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير خبيب وعباد وله -أي للزبير- يومئذ تسعة بنين وتسع بنات، قال عبد الله بن الزبير: فجعل يوصيني بِدَيْنه ويقول: يا بني إن عجزت عن قضاء شيء منه فاستعن عليه بمولاي.

قال -أي عبد الله بن الزبير- فوالله ما دريت ما أراد قال: فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ -أي: هذا الذي سأذهب إليه إن عجز مالك عن الوفاء بالدين؟ - قال: الله. قال عبد الله: فوالله -يحلف- ما وقعت في كربة من دَيْنه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه؛ فيقضيه الله سبحانه وتعالى.

ونحن نذكر هذه القصة للحزانى المساكين أهل الدنيا الذى إن وقع فى مصيبة لا يقول: يا مولاي اقض عني ديني، يجلس يتسخط ويتردد ويتشكك، ويأتي له أحوال نفسية ويقعد يسأل فلانًا وعلانًا وكذا وكذا.

يقول عبد الله يحلف بالله تعالى صادقًا: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه؛ فيقضيه.

قال: فقتل الزبير -كما قال- ولم يدع دينارًا ولا درهمًا إلا أراضين منها: الغابة، وإحدى عشرة دارًا بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارًا بالكوفة، ودارًا بمصر يعني: أينما نزل في جهاده يتخذ دارًا يسكنها. ولم يكن دَيْن الزبير ﷺ كما يستدين اليوم أحدنا لقضاء حاجاته ومصالحه، وإنما كان دينه الذي كان عليه أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا هو سلف، -يخشى

[1] - رواه البخاري في صحيحه (٣١٢٩) ط ١، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ، من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ.

عليه الضَّيْعة- إن ضاع مالك أتيت فأخذته كما هو، وما وَلِيَ ﷺ إمارة قط ولا جباية ولا خراجًا ولا شيئًا إلا أن يكون في غزو مع رسول الله ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ.

قال عبد الله بن الزبير: فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفا ألف ومائتا ألف فلقي عبد الله ﷺ حكيم بن حزام فقال: يا ابن أخي كم على أخي من الدين؟ فكتمته لم يصرح له بالحقيقة المرة وأنه عليه ألفي ألف ومائتي ألف، يعني: مليونين ومائتي ألف فقلت له: مائة ألف. فقال حكيم: مائة ألف!... والله ما أرى أموالكم تسع هذا. فقال عبد الله يصفه بالحقيقة: أرأيتك إن كان ألفي ألف ومائتي ألف؟ قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي، يقول: وكان الزبير -انظر كيف فرج مولاه -سبحانه وتعالى- عنه وقضى دينه لما استعان به- قد اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف فقط، -الغابة هذه أرض في أعالي المدينة-؛ فباعها عبد الله -انظر إلى تفريج الله تعالى- بألف ألف وستمائة ألف، يعني: بمليون وستمائة ألف من مائة وسبعين ألفًا، ثم قام في الموسم فقال: من كان له على الزبير شيء؛ فليوافنا بالغابة، من كان له دين على الزبير؛ فليأت إلى الغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر ﷺ وكان له على الزبير وحده أربعمائة ألف فقال لعبد الله: إن شئتم تركتها لكم -هذا كلام المروءة والشهامة- أربعمائة ألف إن شئتم تركتها لكم، ولا يجامل كما يفعل الناس هذه الأيام حتى المجاملة الآن. قال إن شئتم تركتها لكم. قال عبد الله: لا. قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أخرتم. يعني: إن أردت أن تؤخر أحداً إلى ما شاء الله فأخرني، ولا يهمك شيء، فقال عبد الله: لا. قال: فاقطعوا لي قطعة. قال عبد الله: لك من هاهنا إلى هاهنا، فباع عبد الله منها أي من أرض الغابة تلك التي كان الزبير قد اشتراها بمائة وسبعين ألفًا فقط.... بألف ألف وستمائة ألف – وذكرنا هذه الأرقام فقط من أجل أن الناس كل همهم في الدنيا وماذا حصل والدين والفلوس ومن أين سيأتي وكيف يؤدي، وكأن الله تعالى لا يقضي ديون عباده، ولا يرزقهم، ولا يوسع عليهم، ولا يفرج

كربهم- يقول: فباع عبد الله منها فقضى عنه دينه يعني: دين أبيه،الذى كان ألفي ألف ومائتي ألف، قضاها كلها!... يقول: وبقي منها أربعة أسهم ونصف، بقي من هذه الأرض بعد هذا القضاء لدين أبيه بقي منها أربعة أسهم ونصف والسهم بمائة ألف، يقول: فقدم على معاوية وكان أميرًا للمؤمنين وعنده عمرو بن عثمان، والمنذر بن الزبير، وابن زمعة فقال له معاوية: كم قومت الغابة؟ قال: كل سهم بمائة ألف. قال: كم بقي منها؟ قال: أربعة أسهم ونصف. فقال المنذر بن الزبير: قد أخذت منها سهمًا بمائة ألف، وقال عمرو بن عثمان: قد أخذت منها سهمًا بمائة ألف، وقال ابن زمعة: قد أخذت منها سهمًا بمائة ألف؛ فقال معاوية: كم بقي منها؟ قال: سهم ونصف. قال: قد أخذته بخمسين ومائة ألف.

قال: وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف، وقد كان له على الزبير أربعمائة ألف، باع سهمه بكم؟ بستمائة ألف.

فانظر إلى الله تعالى كيف أكرم هؤلاء الكرام المنفقين، يعني: هذا الكريم الذي قال له: إن شئتم تركتها لكم، الله تعالى أكرمه فيها فبعد أن كان حظه يساوي أربعمائة ألف باعها وأخذ فيها ستمائة ألف.

فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دين أبيه قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين، ينادي في موسم الحج: من كان له على الزبير دين فليأتنا نقضه، أربع سنين ينادي فلم يأت أحد؛ فعلم أنه ليس ثم لأحد على الزبير شيء، فقسمه بينهم.

انظر كيف حصل، أو ماذا حصل كل واحد من هؤلاء يقول: فلما مضى أربع سنين قسم بينهم ودفع الثلث، وكان للزبير أربع نسوة فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف فجمع ماله

-مع أنه كما ذكرنا لم يترك دينارًا ولا درهمًا إلا أراضين بالغابة وداراً هنا ودارين هنا- فكان جميعَ ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف.

إن عجزت عن شيء فاستعن عليه بمولاك

ومقصودنا الذي نعود إليه أن هذه الكلمات القليلة التي ينبغي أن يحفظها المرء..

يقول: قال عبد الله بن الزبير عن أبيه: فجعل يوصيني بدينه يقول: أي بني ديني ديني إذا مت؛ لأن الدين مهم أن يقضيه المرء قبل أن تبرد جلدة الميت، فلا بد أن يسارع في قضاء دينه.

يقول: يا بني -وهي مسألتنا المهمة- يا بني إن عجزت عن قضاء شيء منه؛ فاستعن عليه بمولاي، ونحن نذكر هنا الدَّيْن بالمال؛ لأنه معظم اهتمام أهل الإيمان وأهل الكفران وأهل الشرك وأهل العصيان، ولكن المقصود هنا أن يكون أعظم من ذلك وأشمل، يعني: إن عجزت عن شيء فاستعن عليه بمولاي ليس المال فقط، وإنما كل شيء؛ لأن المرء إذا قل ماله ضاقت عليه الدنيا، وضاقت مذاهبه وأحس بالعجز والافتقار ومن الذي سيعطيه؟ نقول له: ربنا سيعطيك. يقول: كيف فالسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة. ويشكك في قدرة الله تعالى وفي خزائنه التي لا تنفد -سبحانه وتعالى-؛ ولذلك ينبغي أن يحفظ المرء هذه المسألة ليس في المال فقط وإنما في ماله، في مرضه، في ولده، في أهله، في عمله، في دنياه، في آخرته، إن عجزت عن شيء قال: فاستعن عليه بمولاي.

ابن الزبير ﷺ كان يظن أنه مولاه شخص سيذهب إليه يقول له: مال الزبير لم يكفِ ونريد حل هذا الموضوع، وكيف نقضي هذا الدين؟ يقول: والله ما دريت ما أراد حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله، وهذا الذي ينبغي، إن عجزت عن شيء فاستعن عليه بمولاي.

يقول ابن الزبير يحلف بالله -وهم صحابة النبي الصادقون المخلصون الأبرار- يقول: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه؛ فيقضيه، والفاء هنا للتعقيب وقد رأينا كيف قضى هذا الدين وزاد، وورث هؤلاء الذين ينتظرون ميراثًا ورثوا، المرأة منهم أصابها ألف ألف ومائة ألف.

نقول: هذه المسائل ينبغي أن يتعلمها أهل الإيمان، وقد ذكرنا هذه القصة ولم نكثر التعليق عليها؛ لتكون كما يقال نبراسًا وضوءًا شعاعًا هاديًا في تعلم الاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه في كل ما يعجز عنه المرء يقول: أي مولاي اقض كذا، افعل كذا يتوسل إليه بالعمل الصالح أن يفك عنه -سبحانه وتعالى- إذا علم الله تعالى منه صدقه وحسن لجوئه إليه وتوكله عليه؛ قضى له ذلك - سبحانه وتعالى- ، فلما يفتح عليه أبواب الخير لن يغلقها أحد.















عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ((يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف)) .

(رواه الترمذي وقال هذا : حديث حسن صحيح).